سلسلة دراسات في السيرة النبوية (8)



دراسة تحليلية

تأليف

الدكتور رياض هاشم هادي
أستاذ السيرة النبوية المساعد
جامعة الموصل



الكتاب : الحركة الاستشراقية
دراسة تحليلية

Title : AL-ḤARAKA AL-ISTIŠRĀQIYYA
DIRĀSA TAḤLILIYYA

التصنيف : دراسات حول الاستشراق – دراسات في السيرة النبوية

Classification: Studies on Orientalism - Studies on Prophet's biography.

المؤلف : الدكتور رياض هاشم هادي

Author : Dr. Riyadh Hashim Hadi

الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت

Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages	128	عدد الصفحات
Size	17x24 cm	قياس الصفحات
Year	2015 A.D - 1436 H.	سنة الطباعة
Printed in : Lebanon		بلد الطباعة : لبنان
Edition : 1st		الطبعة :الأولى

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah baydoun@al-ilmiyah.com



Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونَستعينهُ ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله.

وبعد:

تأتي هذه الدراسة من قبل الباحث لتسليط الضوء على موقف علماء ومفكري أوربا سواءً في قسمها الغربي أو الشرقي من الإسلام ورسوله.

وسنحاول في هذه الدراسة التركيز بشكل مبسط على منهجهم في الدراسات الإسلامية بعد أن يتم التعريف الكامل بالحركة الاستشراقية منذ نشأتها وحتى الوقت الحاضر وأهم روادها ومفكريها ثم يتم التطرق إلى منهجهم في الدراسات الإسلامية وخصوصا دراستهم للسيرة النبوية الشريفة تلك السيرة العطرة والتي لم يكتب على مدار التاريخ الإنساني سيرة كاملة لأي نبي أو رسول من أنبياء الله أو رسله سوى سيرة الرسول محمد ﷺ.

ولما كان لهذه السيرة دورها المميز في تغير منهج الحياة للبشر وبصورة جذرية. وعليه أصبحت عند هؤلاء المفكرين مثار جدل فانقسموا إزاءها بين مغالٍ في الطعن والتشكيك والإنكار لهذه السيرة وما رافقها من تطورات عالمية وما في جوهر دعوتها التي تنادي إلى توحيد الله، كل هذا جاء باسم الإسلام الدين الخاتم والنبي الخاتم، وما بين محايد إلا انه لم يسلم من الوقوع فيما وقع فيه غيره.

ولما كانت الخلفية الثقافية لعموم الشباب المسلم خالية تماماً من مفهوم الاستشراق وحركته وأهدافه ووسائله، ماعدا طلبة الكليات الإنسانية الذين يدرسون هذه الحركة ضمن مقررات مناهجهم الدراسية. في حين نرى أن عموم طلبة الكليات العلمية يفتقرون إلى أي ثقافة عن حركة الاستشراق إلا من كانت له اهتمامات ثقافية إسلامية وهم قلة. في حين نجد أن معظم أساتذة المدارس وحتى قسما من أساتذة الجامعة في كثير من الأحيان تكاد تكون خلفيتهم العلمية عن هذه الحركة بسيطة. أما دور هؤلاء المفكرين الأوربيين ومدى خطورة طروحاتهم تجاه الإسلام عقيدةً ومنهجاً ورسالة وما هي المؤسسات التي ترعى هؤلاء وتهيئ لهم الأجواء وتسهل لهم أعمالهم وتمدهم بالأموال وما هي الغاية المرجوّة من دراساتهم للشرق العربي والإسلامي فهم لايعلمون وهذه هي الطامة الكبرى ففي هذا العدد من سلسلة دراسات في السيرة النبوية يحاول الباحث أن يسلط الضوء على هذه الحركة بشكل علمي هادف بعيدا عن التعصب والانزلاق وراء العواطف وان كان البعض من هؤلاء المفكرين الأوربيين قد أساء إلى الإسلام ورسوله بشكل معتمد ومخيف ويجافي الحقيقة العلمية، مع قناعة معظمهم بصدق رسالة الإسلام وصحة نبوة الرسول محمد ﷺ.

غير أن الأهداف الشخصية والمصالح السافرة والعداء الديني قد دفع بالعديد من هؤلاء إلى النيل من الإسلام ورسوله.

فلا بد إذن من العمل على تقديم دراسة مبسطة سهلة توضع بين يدي عموم القراء وطلاب العلم والمعرفة والباحثين عن الحقيقة العلمية والذين تدفعهم غيرتهم لحماية دينهم والدفاع عن مقدساتهم والذود عن رسولهم. فكان لزاما علينا أن نبصر هؤلاء الناس بحقيقة هؤلاء من أجل الوصول بهم إلى بر الامان واطلاعهم على نوايا الغرب الأوروبي ومن... حتى يكونوا على علم ولاينخدعوا بما يقدمونه على أنه هذا هو تاريخهم فيضعون لهم السم بالدسم. ويكون هنا المقتل.

ومن المؤسف القول بأن هؤلاء أصبح لهم جيشا من المنتفعين المثقفين المسلمين

عرباً وغير عرب والذين غدت أقلامهم تصدح بما يريد هؤلاء من التشكيك بالإسلام كدين وعقيدة ومنهج وشرع وبعدم صلاحيته لحياة البشر، على الرغم من وجود هذا الجيش الذي سخر لخدمة الحركة الاستشراقية وتحقيق أهدافها عن طريق ابنائها. إلا أنه وبحمد الله كانت هناك ردة فعل عنيفة من أصحاب النخوة الإسلامية انبروا يردون سهام هؤلاء إلى نحورهم. فظهرت العديد من الدراسات العلمية الاكاديمية حاول أصحابها الرد وبشكل علمي ومنهجي على هؤلاء وتفنيد آرائهم وفضح أساليبهم وكشف ألاعيبهم أمام المسلمين لكي لا ينخدعوا بهم. جزاهم الله عن الإسلام ورسوله كل خير وأثابهم على ذلك إنه سميع مجيب الدعاء. وقد تمت الاستفادة من جهودهم العلمية في هذه الدراسة بشكل طيب. ولولا دراساتهم لما كان لهذه الدراسة أن تظهر أمام القراء.

إن هذه الدراسة جاءت إذن لتبيان حقيقة الصراع الدائر ما بين المفكرين الإسلاميين وبين المستشرقين وأعوانهم وكشف نواياهم فهي إذن حرب سجال ما بين طرفين، طرف مسلم عقيدي يدافع عن دينه ورسوله بكل قوة وعزم، وطرف كافر رافض للإسلام ومنكر لرسوله ويجادل جهد قوته للنيل من هذا الدين الخاتم فهو صراع ما بين الحق والباطل. فلا بد والحالة هذه من أن نبصر شباب الأمة ليعي خطورة هؤلاء المستشرقين ويعمل على محاربتهم بشتى الوسائل المتاحة له كما هم يفعلون. ولا ينجر وراء المقولات الخداعة ذات الألوان البراقة باسم العلم والمنهج العلمي التجريبي. هذا المنهج عندما طبقوه على عقائدهم فقد نجح وحقق نتائج باهرة لأن عقيدتهم غير سليمة، أما عندما طبقوه على الإسلام فقد ارتد عليهم وظهرت له نتائج عكسية غير متوقعة.



التمهيد

لقد ظل الإسلام بمفاهيمه العظيمة مثار دهشة المفكرين الغربيين، لما أحدثه من تغير شامل وجذري في حياة المجتمع العربي والمجتمعات التي دخلت تحت لوائه من سائر الأمم والشعوب وما أضافه هذا الدين ورسوله الخاتم إلى عموم الحضارات الإنسانية من زخم وعطاء وما قدمه للبشرية جمعاء من تطور وتجديد. كل هذه العوامل وتلك دفعت بهؤلاء المفكرين إلى دراسته بعمق وتروي وتتبعوا مسيرته بشكل دقيق فوجده البعض مادة علمية دراسية فعكف عليه بالدراسة والتحقيق وفريق آخر اشتد عليه الحزن والألم لما حققه هذا الدين وبهذه السرعة الكبيرة من نجاح وتفوق كبيرين في الحياة الخاصة والعامة للناس. فأثار عنده هذا الحقد الدفين ومن هذا وذاك طغت على السطح الأكاديمي دراسات عديدة أطلق عليها فيما بعد بالدراسات الاستشراقية الإسلامية أو ما عرف (بحركة المستشرقين) فاتسم بعضها بالموضوعية المحايدة وبدا على قسم آخر مؤثرات الحقد والهوى البعيد عن العلمية والاكاديمية. غير أن كليهما لا يسلم أبداً من حقد دفين ماكر ضد الإسلام ورسوله. وان كان قد تستر بزي العلم والموضوعية. والبعض الآخر كان هدفه استعمار البلاد العربية والإسلامية ونهب خيراتها. وآخرين وجدوا في هذه الدراسات أملاً لهم في التبشير بالنصرانية والنيل من الإسلام بسلب مواقعه في بلاده وعقر داره وهكذا كانوا ولا زالوا. وفي غفلة من أهله المسلمين تمكن هؤلاء من ان ينفذوا بسهامهم وحقدهم من فوق اسوار البناء الإسلامي المتين، وتحت اعين الغافلين وبمباركة المستفيدين فشاع سمهم في جسم الدولة الإسلامية حتى صار الدين عبارة عن صوم وصلاة وأداء للطقوس، وتركوا الميادين الحقيقية للإسلام

لغيرهم يعبثون بها. فلقد تحقق لهؤلاء المفكرين الغربيين والذين أطلق عليهم فيما بعد بالمستشرقين ما كانوا يصبون إليه بشيوع أفكارهم. ونفث سمومهم فتمكنوا بسرعة خاطفة من طعن الإسلام والإساءة إلى رسوله الخاتم وطعنوا في رجالات الإسلام من الصحابة والعلماء والفقهاء والمفسرين ولم يسلم من كيدهم أحد بل حتى تاريخ الأمة هذا السجل الحافل بالمعطيات الحضارية والإنسانية، لم يسلم من كيدهم وحقدهم ومكرهم.

إن الذي ساهم في ذلك ومكن هؤلاء من تحقيق أهدافهم عوامل عديدة خارجية وداخلية فيها وجود جيش من المفكرين العرب المسلمين من المنهزمين من أصحاب المصالح الذاتية والاهواء الخارجية من العلمانيين والمفسرين من الذين وجدوا في الإسلام كمنهج وعقيدة خطرا عليهم لذا عملوا على هدمه والإساءة إليه وتمكنوا من ذلك بفضل الإسناد الغربي لهم من الخارج وأصحاب القرار من الداخل.

ففي الخارج كانت هناك مؤسسات كبيرة عديدة تمولها الحكومات تسعى جاهدة إلى حماية هؤلاء المفكرين والذين أخذوا على عاتقهم دراسة الإسلام ثم الكيد له. فكانوا يقدمون لهم الأموال والدعم السياسي سواء كان هؤلاء المفكرين عربا مسلمين أم نصارى غربيين. المهم هو تحقيق أهدافهم القريبة والبعيدة وأهمها استعمار هذه البلاد ثم العمل على نهب خيراتها ثم تحويلها إلى سوق لبضائعهم ثم جعلها ارضا خصبة للتبشير بالدين المسيحي.

فمن خلال جهود هؤلاء المستشرقين والتي انصبت لدراسة البلاد العربية والإسلامية بكل تفاصيلها، ظهر كم هائل من المؤلفات والكتب والمقالات، والتي من خلالها استطاعت حكوماتهم استعمار هذه البلاد والسيطرة عليها. فكانت هذه الدراسات تمثل العين الذي لا ينضب والذي ساعد الحكومات الغربية والكنيسة الغربية من تحقيق أهدافهم في النيل من الإسلام ورسوله.

إلا أننا نقول إن كان هذا قد نجح بسبب غفلة من الأمة ووجود المنهزمين فيها في فترة من الزمن سواءً طالت أم قصرت، فإنه وبإذن من الله تعالى سيزول ذلك عندما يعلم غيارى هذه الأمة من شبابها أن هؤلاء المستشرقين لم يكونوا يوماً من الأيام يهتمون بالإسلام لأنه دين الله وأنه الدين الحق بل إنما كان اهتمامهم بالإسلام ورسوله هو من أجل استعبادهم واذلالهم وسوف ينتفضون ويزيلون الغبار ويعيدون الحق إلى نصابه كما كان وكما يريده الله ورسوله.

فكان لا بد لهذه الدراسة من أن تعمل على توضيح أهداف الحركة الاستشراقية ومفاهيمها وتقديم صورة عمليةً عن هؤلاء المستشرقين وما هي أهدافهم وما هي المؤسسات التي ترعاهم وتمولهم، وتنشر أبحاثهم وتروج لهم حتى يتمكنوا من تحقيق الأهداف المرجوة من حركتهم.

فعندما يقرأ المثقف المسلم عن هذه الحركة ويعرف أساليبها ومكرها في تزييف الحقائق وكشف ما يسعون إليه. عند ذاك سوف يكون قد حصن نفسه من مكرهم وكشف الاعيبهم ثم العمل على رد سهامهم لأنها كاذبة زائفة.

خطة البحث في هذه الدراسة ستشمل مواضيع عديدة ذات علاقة بالاستشراق وفي مقدمتها:

أولاً: التعريف بالاستشراق لغةً واصطلاحاً.

ثانياً: نشأة الاستشراق وأهميته ودوافعه.

ثالثاً: القيمة العلمية لمؤلفات المستشرقين.

رابعاً: مفهوم الغزو الفكري الاستشراقي.

خامساً: الاستشراق وعلاقته بالاستعمار.

سادسا: سبل المستشرقين في تحقيق أهدافهم.

سابعا: المستشرقون والدراسات الإسلامية

1. موقفهم من القرآن الكريم.
2. موقفهم من الرسول محمد ﷺ.
3. موقفهم من السنة النبوية الشريفة.
4. موقفهم من السيرة النبوية المشرفة.



الاستشراق لغةً واصطلاحاً

الاستشراق لغة:

ذكرت المعاجم العربية أنها ماخوذة من الشرق والشرِق بكسر الراء وهو الأكثر وبالفتح وهو القياس لكنه قليل الاستعمال. وهو اسم الموضوع أي جهة شروق الشمس. فكلمة الاستشراق مشتقة من كلمة (الشرق)[1] وهي تعني ناحية شروق الشمس، والسين في الكلمة للطلب، أي طلب ما في الشرق.

الاستشراق اصطلاحاً:

يقول المستشرق الألماني (رودي بارت) أن اسم الشرق قد تعرض لتغيير في معناه فمصطلح الشرق يرجع إلى العصر الوسيط. بل يرجع إلى العصور القديمة إلى الوقت الذي كان فيه البحر المتوسط في وسط العالم، إذ كانت الجهات الأصلية تتحدد بالنسبة إليه[2]. غير أنه لما انتقل مركز نقل الأحداث السياسية العالمية بعد ذلك من البحر المتوسط وإلى

---

(1) ينظر ابن منظور، أبو مكرم، لسان العرب، مادة شرق، إعداد وتصنيف يوسف الخياط (بيروت) 2/ 303، وأحمد محمد الفيومي، المصباح المنير، د/ ط (مصر: 1342هـ) 1/ 332 محمد عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، د/ ط (الكويت، د/ ت) 336.

(2) ينظر رودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الالمانية، ترجمة د. مصطفى ماهر، د/ ط (القاهرة د/ ت) 12 - 13.

الشمال بقى مصطلح الشرق على الرغم من ذلك دالاً على تلك الدول الواقعة شرق البحر المتوسط. إلا أن لفظة (الشرق) - ***(orient)*** قد تعرضت في أعقاب الفتوحات الإسلامية لتغيير آخر في معناها فشملت البلاد المفتوحة في أفريقيا ومنذ تلك الفتوحات تعد مصر وبلدان شمال أفريقيا وبلاد المغرب العربي وإن كان اسمه يفترض أن يختص بالبلدان الشرقية دون غيرها[1].

يعرف الاستشراق اصطلاحاً كذلك بتعاريف أخرى منها، الاستشراق جهد علمي غربي موصول ومتصل استمر لقرون من الزمان بلا انقطاع بل في تطور استمر حتى انتهى إلى منظومة فكرية مركبة ومعقدة. وقد أُريد بهذا الجهد (إنشاء خزانة معرفية واسعة) منظمة وهادفة عن الشرق عامة والوطن العربي والعالم الإسلامي خاصة[2]. ويجري الاعتقاد دائماً في كل الدوائر الثقافية العربية أن الاستشراق مقرون بالاستعمار والتبشير فهو بهذا المعنى صدر عن مواقف تتصل بتكوين مؤسسات ساعدت في نموّ كل الذين عملوا في الاستشراق[3].

فالاستشراق إذن حركة قرينة الاستعمار لأن عصر الاستعمار اعتمد بشكل مباشر على ما قدمه المستشرقون من الذين أوغلوا في معرفة اللغة العربية والشرق العربي وساعدوا على تكوين المؤسسات الاستعمارية بالرأي والمشورة والحكم والمباشرة.

وقيل إن الاستشراق هو علم يدرس الشرق وتراثه وحضارته ومجتمعاته ماضيه وحاضره.

---

(1) ينظر د. عرفان عبد الحميد، مناهج المستشرقين، د/ ط، د/ ت 12 - 13.

(2) ينظر عبد الأعسم، الاستشراق من منظور فلسفي عربي معاصر (مجلة آفاق عربية، 1986). عدة أماكن.

(3) ينظر الاعسم، المكان نفسه.

وقيل كذلك أن الاستشراق يعني كذلك تلك الدراسات التي قام بها أولئك المستشرقون لحضارات الشرق وأديانه ولغاته وتاريخه وعلومه واتجاهاته النفسية وأحواله الاجتماعية وبخاصة حضارة الإسلام وأحوال المسلمين في مختلف العصور[1].

مما سبق عرضه يمكننا القول أن هذا المصطلح هو مصطلح غريب وافد على مصطلحاتنا العلمية لأنه نبت في بلاد غير بلادنا ولا يمكن أن يطلق عليه بسمة العلم إلا إذا كان موضوعياً يعبر عن الحقائق المجردة والمدركات اليقينية. فإذا انحرف عن هدفه هذا انحرف عن الموضوعية وتحول ليحقق أغراضاً غير علمية كان الهدف منها الوصول للطعن في قيم الدين الإسلامي وتعاليمه خدمة للتبشير أولاً ثم للاستعمار ثانياً أو لكليهما[2].

بعد أن تم تعريف الشرق وتعريف الاستشراق فلا بد من تعريف المستشرقين رواد «الحركة الاستشراقية».

المستشرقون هم أولئك النفر من المفكرين الغربيين من الذين اهتموا بالدراسات الشرقية فإذن كل من يقوم بتدريس أحوال الشرق أو الكتابة عنه أو يبحث فيه (ويسري هذا القول سواء أكان هذا المفكر مختص بعلم الإنسان – الانتربولوجي – أو بعلم الاجتماع أو مؤرخاً أو فقيه لغة – فيولوجي) أو في جوانبه المحددة والعامة على حدٍّ سواء فهو مستشرق وكل ما يقوم به استشراق[3].

في حين عرفهم بعض العلماء والمفكرون العرب والمسلمون بأنهم أولئك الكُتّاب الغربيون من الذين يكتبون عن الفكر العربي والإسلام وعن الحضارة الإسلامية[4].

---

(1) ينظر بارت، الدراسات، 13 – 14.

(2) ينظر عبد الحميد، دراسات، 7 – 11.

(3) ينظر ادوارد سعيد، الاستشراق، 38.

(4) ينظر مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره على الفكر الإسلامي الحديث، 7.

في حين يرى آخرون (بأنهم جماعة من الكتاب والمؤرخين الاجانب الذين خصصوا جزءاً كبيراً من حياتهم لدراسة وتتبع المواضيع التراثية والتأريخية والاجتماعية للشرق الإسلامي، فصار من الضروري على هؤلاء أن يتعلموا اللغات الأصلية لهذا الجزء من العالم)[1].

وكما يطلق أحياناً أخرى على هؤلاء المفكرين الغربيين المستشرقين اسم (المستعربين) مع أنه قد لا يصح تعميم هذا الإطلاق إذ ليس كل مستشرق مستعربا. فمصطلح مستشرق اعم من المستعرب فكل مستعرب مستشرق وليس كل مستشرق مستعرب على اعتبار أنه ليس بينهما مساواة حتى يصبح إطلاق هذا اللفظ على كل واحد منهما[2].

وعلى العموم ومن خلال هذه التعاريف لمصطلحي الاستشراق والمستشرق يمكن القول أنه ذلك الجهد العلمي الاستعماري المستند على ركائز علمية وسياسية واقتصادية بدأً قديماً ولا زال مستمرا. وهذا ما يؤكده العديد من الباحثين الافاضل من المتصدين لحركة الاستشراق (بأن حركة الاستشراق كانت ولا زالت قوية متماسكة والقول أن عصر الاستشراق قد ولى وانتهى فهو كلام مردود عارٍ عن الصحة لأن هذه الحركة لا زالت ترعاها الجمعيات التبشيرية والمؤتمرات السياسية والمعاهد العلمية المنتشرة في عموم أوروبا وأمريكا وإن بدا انه هذه الحركة قد ضعفت إلا أن حقيقة الأمر أن أسماءها قد تغيرت وتبدلت إلا أن أهدافها هي هي لم تتغير وتتبدل[3].



(1) ينظر د. عبد الجبار ناجي، تطوير الاستشراق، 23 – 24.

(2) ينظر ناجي، المكان نفسه.

(3) ينظر بهاء الدين حسين، القرآن والمستشرقين، 4.

نشأة الحركة الاستشراقية

تعد نشأة حركة الاستشراق من المسائل التى اثير عنها الكثير من الخلافات عند العديد من الباحثين المعاصرين من المعنيين بالدراسات الاستشراقية والمؤرخين بها وعدم إمكانية الجزم بتحديد العالم أو المفكر الغربي الذي اهتم بهذه الدراسات يرجع إلى نهايات القرن الأول الميلادي عندما عثر على مؤلف لكاتب مجهول عنوانه (الطواف حول البحر الاريتيري). ويذهب الدكتور جواد علي (رَحِمَهُ ٱللَّهُ) على أنه كتاب في نهاية القرن الميلادي وان الذي كتبه كان عالما بأحوال الهند وشواطئ أفريقيا[1].

في حين يرى باحث آخر بأنه لا يعرف على وجه التحديد أول غربي اتجه إلى دراسة العلوم الإسلامية ولا تأريخ البدء بذلك. والذي يمكن أن يقال بذلك الخصوص بدءً بدراسة اللغة العربية والاسلام، وانتهى بعد التوسع الاستعماري الغربي في الشرق إلى دراسة جميع ديانات الشرق وعاداته وحضاراته وتقاليده وأشهر لغاته وان كانت العناية بالإسلام والآداب العربية والحضارة الإسلامية هي من أهم ما يعني به المستشرقون حتى اليوم نظراً للدوافع الدينية والسياسية التي شجعت على الدراسات الاستشراقية[2].

لقد جاء اهتمام المفكرين الغربيين بالشرق الإسلامي العربي منذ أن دخل الإسلام اسبانيا فنشأت في بداية الأمر صلات وثقية مع فرنسا وايطاليا وانكلترا[3]. وكما أن الانتشار

---

(1) ينظر عبد الجبار ناجي، تطور الاستشراق في دراسة التراث العربي، ط (دار الحرية/ بغداد) 85 – 86.

(2) ينظر د. مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم ط 7 (الكويت: 1986).

(3) ينظر الدكتور عجيل جاسم النمشي، المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي، ط (الكويت:1984) 7 – 8.

السريع للإسلام في الشرق والغرب قد لفت وبشكل غير طبيعي انظار رجال الدين في كنائس أوروبا فجعلهم ذلك يهتمون بالإسلام كدين وعقيدة. فقام مجموعة من رجال الدين الكنسي بدراسته كما اهتم به كذلك في الشرق العديد من رجال الدين النصارى ومنهم يوحنا الدمشقي (676 – 749 م) الذي يعَد أول من صنف الكتب في دراسته للإسلام والمسلمين وكان كتابه (محاورة مع مسلم) وكتاب (إرشادات النصارى في جدال المسلمين) على الرغم من ذلك لا يمكن اعتبار ما قدمه يوحنا على أنه بداية لحركة الاستشراق لأنه كان شرقيا عاش ونشأ في كنف الدولة الأموية[1].

وملخص القول يمكن اعتبار الدراسات الاستشراقية قد بدأت منذ وقت مبكر وعلى وجه الخصوص في العصر الوسيط فقد كان لدخول المسلمين اسبانيا وجنوب إيطاليا وصقلية الأثر الأكبر في توجيه الأذهان نحو هذا الدين الجديد الذي أتى به العرب المسلمون في الشرق. فحيث اشتدت حملات الصليبيين الاسبان على المسلمين، دعا (الفونس) ملك قشتالة (ميشل سكوت) ليقوم بالبحث عن علوم المسلمين وحضاراتهم فجمع سكوت هذا طائفة من الرهبان القسس في إحدى الأديرة وشرعوا في ترجمة بعض الكتب من العربية إلى لغاتهم وانصب اهتمامهم على الكتب العلمية مثل الرياضيات والفلك والطب ثم ذهب إلى روما حيث كانت شهرته قد سبقته هناك لمعرفته الواسعة باللغة العربية وعلومها. ثم جاء بعده (قسطنطين الاغريقي – 1087) و(بطرس المحترم – 1156) و(ارجودي سانتلا – 1107) ثم (جيراد كريمون – 1187) ثم تتابع رواد الحركة الاستشراقية وتكاثرت أعدادهم واختلفت جنسياتهم بحيث شملت معظم دول أوروبا وامريكا في العصر الحديث.

ولقد حرص هؤلاء المفكرون الغربيون الذين اهتموا بعلوم العرب والمسلمين إلى نشر ما أنتجوه من علوم عن هذه الأمة وما يتعلق بعقيدتها ومعارفها عند عموم أبناء جلدتهم

(1) ينظر الدكتور محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ط 19 (قطر: 1404هـ).

واستمر الأمر على ذلك إلى أن تدخلت الحكومات الأوروبية وانشأت في جامعاتها اقساما مستقلة لتدريس اللغة العربية ودراستها وكافة علوم الشرق العربي والإسلامي. ثم اخذت بعد ذلك حركة الاستشراق بالظهور والاطراد سنة 1312م.

اذ عقد مؤتمر فيينا الكنسي وكان من أهم قراراته إنشاء كرسي اللغة العربية في روما على نفقة الفاتيكان، وفي باريس على نفقة ملك فرنسا وفي اكسفورد على نفقة ملك انكلترا وعليه عد العديد من المؤرخين أن هذا المؤتمر كان البداية الرسمية لظهور هذه الحركة الفكرية بشكل منظم وشبه رسمي ونشأ عند ذاك العديد من المدراس والمعاهد ذات الصفة الاستشراقية وانصب منذ تلك اللحظة اهتمام هؤلاء جميعاً على الشرق العربي والإسلامي[1].

وعليه فقد قام هؤلاء المستشرقون ببذل كافة قدراتهم العلمية من أجل معرفة الشرق وما يوجد فيه من أديان ومعتقدات وحضارات وتراث وعلى مدى العصور إلا أن جل اهتمامهم انصبَّ على الإسلام وأهله.

ويقول أحد الباحثين المعاصرين (وكم تمنيت لو أننا فعلنا مثل ما فعلوه واستغربنا كما استشرقوا ودرسنا عقائدهم وأفكارهم وأحوالهم الاجتماعية لعلنا قدرنا على نشر الإسلام في كافة أقطارهم ولكشفنا عن سلبياتهم ومن أين مصدر علمهم وحضارتهم التي يفتخرون بها اليوم ويقولون بسيادة الرجل الأبيض على الناس كافة وأن العرب هم امة بدوية لا تعرف سوى القتل والنهب وليس لها أية حضارة أو تراث. ولو كان لنا نفس التوجه لاستطعنا وبلا شك دحر أفكارهم ورد سهامهم في نحورهم إلا أن الذي حصل هو الانجرار وراءهم وترك ماضينا المجيد والافتتان بهم وهذا هو مقصدهم[2].



(1) ينظر الدكتور محمد السيد، الاستشراق والتبشير قراءة تأريخية موجزة د/ ط (القاهرة: 1999) 13.

(2) ينظر السيد، المكان نفسه.

أهمية الحركة الاستشراقية وأهم الجهات المعنية بها

تبرز أهمية الحركة الاستشراقية في عموم أوروبا في كونها المؤسسة التي تعنى بالشرق العربي والإسلامي بشكل خاص وعموم الشرق بشكل عام وابتناء السياسات الغربية على ضوء دراساتها الهادفة إلى خدمة مصالح الدول الاستعمارية. فإذا اتخذناها كبداية منذ أواخر القرن الثامن عشر نقطة محددة تقريبا فإن الاستشراق يمكن أن يناقش ويحلل بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق، والتعامل معه باصدار تقريرات دولية. واجازة الآراء فيه وإقرارها، وبوصفه وتدريسه والاستقرار فيه وحكمه وبإيجاز الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على عموم الشرق العربي والإسلامي واستبنائه وامتلاك السيادة عليه[1].

في حين يبين المستشرق الالماني رودي بارت أهمية الاستشراق عندما يقول (نحن معشر المستشرقين نتمتع بميزة الجلوس في أي مكان ذي نافذة، نطل منه على الشرق الساحر الجذاب، والآخرون على حق عندما ينتظرون منا أن نعرفهم من حين لآخر بالعالم الذي نحيط به علماً ولو سلكنا في سبيل ذلك كتاب مؤقت[2].

فعليه يمكننا القول أن الاستشراق في العالم الأوروبي الحديث كله موضوع أو منهج

---

(1) ينظر ادوارد سعيد، الاستشراق، 38 – 39.

(2) ينظر الدراسات العربية والإسلامية، 108 – 109.

علمي معترف به من الجميع ويوشك أن يكون ممثلا في كل جامعة من الجامعات الأوروبية بكرسي يشغله أستاذ فضلا عن أن المجتمع ممثلاً في حكوماته ومجالسه النيابية يضع تحت تصرف هؤلاء المستشرقين كافة الإمكانيات اللازمة لإجراء بحوثهم ودراساتهم عن الشرق، للحفاظ على نشاطهم التعليمي في هذا المضمار[1].

اذا كانت عموم دول أوروبا وبكل مرافقها العلمية والسياسية والثقافية وحتى الاجتماعية قد اهتمت بهذا القدر العظيم بالشرق العربي والإسلامي وجندت للعمل والاهتمام به جيوش من المفكرين والعلماء والمثقفين والرحالة والسواح والقسس والرهبان وأرصدت لهم الأموال العظيمة وقدمت لهم كافة التسهيلات والامكانيات اللازمة، ألا يدفعنا هذا إلى التساؤل لماذا هذا الاهتمام بالشرق بشكل عام والدول العربية والإسلامية بشكل خاص؟!.

وقد نرى لدى الدكتور ادوارد سعيد اجابة شافية عن ذلك فهو ابرز الباحثين ممن تصدوا لأعضاء هذه الحركة. بالتحليل والمناقشة فهو يقول في ذلك «ولما كانت الاقاليم الإسلامية هي التي كانت تشكل تهديدا لأوربا، انصبت الجهود نحوها لإخضاعها بشتى الوسائل، وابعادها عن عقيدتها ومثلها وقيمها التي كانت تمثل سر قوتها ووحدتها وتماسكها حيث لم يكن هناك إقليم يشكل خطرا أو تهديد محليا لأوربا في الشرق، إن الهند لم تشكل مرة واحدة تهديدا محليا لأوروبا إلا أن الخطورة كانت تكمن عبر الاقاليم الإسلامية التي هي السبيل للوصول إلى الثروات الهندية الشرقية[2].

ويقول باحث آخر حول اهتمام الغرب بالشرق: (لقد نال المستشرقون اهتماما متزايدا وعناية خاصة من لدُن الحكومات الغربية فقد وطد الحكام صلتهم بالمستشرقين فضموهم إلى حاشيتهم أمناء لأسرارهم، وانتدبوهم سفراء وقناصل ومترجمين وموظفين في سلكي

(1) ينظر بارت، الدراسات، 112.

(2) ينظر الاستشراق، 106.

الجيش والسياسة إلى بلدان الشرق ومنحوهم ألقاب الشرف الفخمة (كبارون وكونت) وولوهم كراسي التدريس في أشهر الجامعات، ومنحوهم عضوية المجامع الكبرى وانفقوا على مطبوعاتهم وبعثوهم للقيام بالرحلات العديدة)[1].

لقد مثل الإسلام بالنسبة لأوروبا الوجه المأساوي لها فقد استطاع الإسلام أن يقهر أوروبا وحضارتها في عقر دارها، وجاء المد الإسلامي الذي مثلته الخلافة الإسلامية العثمانية ليكتسح أوروبا مجددا ومهدداً لحضارتها القائمة على التثليث العقائدي فانطلاقا من خوفهم من الإسلام وحضارته القائمة على التوحيد العقيدي ونبذ الشرك والوثنية مهما كانت، وجهت عند ذاك الدراسات الاستشراقية ضد الإسلام وعقيدته فكانت هذه الدراسات تحمل منذ اللحظة الأولى لانبثاقها روح العداء والكره الشديد للإسلام ومعطياته الإنسانية والحضارية، باذلة كل الجهود في طمس معالم هذا الدين وتشويه نقائه وتضليل الناس في بلادهم عنه. وتقديم صورة زائفة وغير دقيقة عنه وبمختلف الطرق والاساليب وان كانت هذه الطرق والاساليب غير أخلاقية أو غير علمية. وهذا أحد الباحثين المعاصرين من الذين وفقهم الله لقول الحق يقول عن هؤلاء المستشرقين (لا يعرف العقل ولا المنطق حدا لما يقوم به المستشرقون من تحريف للتأريخ الإسلامي وتشويه لمبادئ الإسلام وثقافته وإعطاء المعلومات الخاطئة عنه وعن أهله، وكذلك يجاهرون بكل الوسائل لينتقصوا من الدور الذي لعبه الإسلام في تاريخ الثقافة الإنسانية. وإن المستشرقين جميعاً فيهم قدر مشترك من هذا الجانب فبعضهم أكثر تعقيدا ضد الإسلام وعداوة له من البعض الآخر لكن يصدق عليهم جميعاً أنهم أعداؤه)[2].



(1) ينظر البهي، المبشرون والمستشرقون وموقفهم من الاسلام، 527.

(2) ينظر العقيقي، المستشرقون، 137 – 138.

أهم الدول الراعية لحركة المستشرقين

فيما مضى تحدثنا عن الاستشراق وأهميته والان نتحدث عن الدول الراعية له ولحركته وأمدتها بسند سياسي ومالي عسكري مما مكنها من أن تنجز كافة الأعمال الموكلة لها بشكل منقطع النظير ولا زالت بفضل ذلك الدعم على قوتها ونشاطها. ونحن لا نتفق مع الذين يقولون إن هذه الحركة قد انتهت وتلاشت. ولكن نقول إن هذه الحركة كانت ولا زالت كما هي وعلى قوتها. إلا أن الذي تغير هو فقط تغير المسميات. إلا أن الأهداف واحدة وإن لم نقل قد زادت شراسة وقوة عن ذي قبل إذا كانت القرون الماضية لم تُبدِ اهتماما لهذه الحركة سوى أنها كانت موجهة لمحاربة الدين الإسلامي وأهله والعمل على وقف مده الذي اجتاح أوروبا، فانها اليوم تحارب الإسلام علناً جهاراً نهاراً وتجند الآلاف من الاتباع للسير وراء نفس المنهج، وفي عقر داره وأمام معتنقيه. ثم إنه كان لاكتشاف الثروات الستراتيجية مثل النفط والغاز والمعادن والذهب الأثر الأعظم في جعل هذه الحركة تستمد قوة جديدة لاستمرارها فلا بد من تشويه الإسلام وطعنه وإضعاف قوة المسلمين بتمزيق وحدتهم وطمس هويتهم العقائدية، وجعل المسلمين يبدون أمام الأوروبيين أقل منزلة حتى يصبحوا تبعاً لهم لا هم بالإسلام متمسكين ولا هم للغرب تابعين فهم عند ذاك فاقدي اصالتهم وحضارتهم وترابطهم الروحي العقيدي بل يحاول المنهزمون منهم من خلع رداء الإسلام عنهم ليبدوا أكثر تقرباً من أسيادهم الذين أذلوهم بإبعادهم عن حقيقة دينهم.

فالاهتمام والرعاية لهذه الحركة لم يكن فقط لمحاربة الإسلام والمسلمين والتشكيك بقدرته على التواصل والعطاء الحضاري. بل كان الاهتمام منصباً على الوصول إلى خيرات

هذه البلاد الإسلامية التي حباها الله عَزَّوَجَلَّ بها. فهناك دول أوروبية إن لم نقل معظمها تشارك في هذه الحركة ورعايتها بكل الوسائل والسبل غير أنه هناك دولا كان لها النصيب الأعظم والأكبر في تبني هذه الحركة ومفكريها ورعايتها منذ نشأتها وحتى الآن وهي على التوالي:

1. هولندا:

كانت هولندا من أوائل الدول الأوروبية اهتماما بالشرق وتراثه فقد تعرفوا على اللغة العربية قبل الألمان لاسباب منها اتصالهم بعرب مراكش والجزائر وطرابلس ومسلمي الهند الشرقية اتصالاً مباشراً سياسياً وتجارياً فضلاً عن الخلاف الديني الذي وقع في أوروبا عندما ظهرت حركة الاصلاح الديني بقيادة المتحرر (مارتن لوثر) الذي عارض الكنيسة الكاثوليكية ومنها كذلك إقبال علماء الغرب من الهولنديين على علوم الشرق. وكان مفكري هولندا في طليعة العلماء تعمقاً ودراسة وإتقاناً لعلوم الشرق العربي والإسلامي، حتى وصل الأمر إلى ان يستعين علماء أوروبا من المهتمين بالشرق وعلومه بمؤلفات المستشرقين الهولنديين وترجماتهم، وأصبحت مطبعة ليدن ذائعة الصيت تؤدي دوراً مهماً في الطباعة والنشر لمؤلفات عموم المستشرقين في كافة أرجاء أوروبا.

إلا أن اهتمام الهولنديين بالاستشراق كحركة قد بدأ بشكل فعال بعد الحرب العالمية الثانية وذلك بسبب التغيرات الدولية الحاصلة آنذاك[1].

2. بريطانيا:

يعد دور المفكرين المستشرقين الإنكليز من أكثر الأدوار الأوروبية اهتماما بالشرق العربي والإسلامي، حيث كانت هناك اتصالات وثيقة ما بين بريطانيا والشرق حربياً وسياسياً

(1) ينظر العقيقي، المكان نفسه. ينظر حول هذا الموضوع أ. د. دريد عبد القادر نوري وآخرون المستشرقون والدراسات الإسلامية، ط (جامعة الموصل: 2008) أماكن عديدة.

وثقافيا واقتصاديا. فلقد جاءت الدراسات الاستشراقية في بريطانيا في فترة مبكرة إذ عكف عدد كبير من المفكرين الإنكليز ولاسيما في القرون الوسطى على دراسة اللغة العربية وآدابها... ثم تطور الاستشراق البريطاني في القرن السابع عشر بإنشاء منصب الأُستاذية للغة العربية في أهم جامعات بريطانيا مثل أُكسفورد وكمبردج[1].

3. فرنسا:

جاء اهتمام المفكرين الفرنساويين بالشرق منذ أن غزا العرب المسلمون العديد من المقاطعات الفرنسية واستمرت هذه الصلات من خلال العديد من القنوات منها الحروب الصليبية وإنشاء طرق التجارة وتبادل الشعراء وتوالي الرحلات العلمية والتجارية والثقافية ومنها احتلال فرنسا لشمال أفريقيا وحملة نابليون الفرنسي على مصر وانتداب فرنسا لسوريا ولبنان ومن هنا نرى أن هناك صلات عديدة ما بين الشرق العربي والإسلامي وفرنسا زعيمة الصليبية العالمية كانت ولا زالت. فلقد تنوعت هذه الصلات ما بين حملات حربية وسفارات سياسية ونشاطات تجارية ورحلات ثقافية.

إن هذه الصلات أو العلاقات الآنفة الذكر جعلت من فرنسا رائدة في الاستشراق وراعية مهمة لحركته أكثر من غيرها من الدول الأوروبية بحيث كان لها الريادة في تقدم باحثيها في هذا الميدان والاعتكاف على دراسة الشرق وأحواله وبمختلف المجالات وتقديم العديد من الدراسات والمؤلفات عنه[2].

4. ألمانيا:

يرجع اتصال ألمانيا الدولة الأوروبية الغربية العظمى بالشرق العربي والإسلامي إلى

---

(1) ينظر العقيقي، المستشرقون، 151. ينظر نوري، المستشرقون، عدة أماكن.

(2) ينظر العقيقي، المستشرقون، 102.

الحملة الصليبية الثانية 1147 – 1149 م وعودة حجاجها من الأراضي المقدسة في فلسطين ووصفهم لهذه المدينة الدينية العريقة ونقلهم شيئاً من حضارتها وقيام الرهبان والقساوسة بالترجمة عن اللغة العربية في الأندلس. وكان من أولئك الرهبان القساوسة العديد من الألمان فكانت هذه هي البداية.

غير أنه يعزى إلى الأسباب المباشرة لقيام حركة الاستشراق الالماني. ما قام به المتحرر لوثر بالانفصال عن الفاتيكان. حيث قامت مجموعة من المفكرين الألمان تؤازره بشحذ الأقلام والرجوع إلى التوراة ولم يمضِ كثير من الوقت حتى عرفت اللغة العربية في ألمانيا ثم جاء الاهتمام باللغة العربية وتوسع إلى أن تم إنشاء مراكز لتعليم العربية في أشهر معاهد ألمانيا ومدارسها الفكرية ويرجع اهتمام الألمان بالآداب الشرقية إلى مطلع القرن التاسع عشر[1].

5. إيطاليا:

بحكم التماس الذي حصل ما بين العرب المسلمين والإيطاليين عندما فتح العرب المسلمون صقلية وغيرها من الجزر الإيطالية ونشر الإسلام فيها واقاموا دويلات عربية إسلامية فيها. نشأت صلات تجارية وسياسية وثقافية ما بين هذه الدويلات العربية الإسلامية والدولة الأم إيطاليا، بدأ اهتمام المفكرين الإيطاليين بالشرق العربي الإسلامي وحضارته. كما أن إيطاليا كانت حلقة الوصل ما بين الشرق العربي الإسلامي والغرب الأوروبي المسيحي. فكان ذلك أن جعل الثقافة العربية تنال عندهم اهتماما كبيرا لا سيما اللغة العربية وآدابها وعلومها وفنونها، مما دفع بالعديد من المفكرين الإيطاليين إلى ترجمة التراث العربي والإسلامي ونشره. إن هذا الاهتمام جاء بفضل الدعم اللامحدود الذي قدمته (الفاتيكان)

(1) ينظر العقيقي، المستشرقون، 104.

لهؤلاء والتي أبدت اهتماما متزايدا بالإسلام وعقيدته. كما أن الإيطاليين كانوا هم أول من أنشأ الرحلات العلمية إلى الشرق[1].

6. اسبانيا:

أما اهتمام اسبانيا بالحركة الاستشراقية ورعاية المستشرقين فيها فإنه يرجع إلى أسباب في غاية الاهمية منها أن العرب المسلمين حكموا هذا البلد لمدة سبعة قرون وأقاموا فيه حضارة إسلامية عظيمة. وتركوا فيه المئات من روائع الكتب والمؤلفات العلمية والأوروبية والثقافية والمعمارية والفنية فلقد كانت اسبانيا (الأندلس) أيام حكم العرب المسلمين لها مركز إشعاع فكري أنار ظلمات أوروبا الغربية التي كانت قابعة في دياجير الظلام آنذاك. فقد أقبل الاسبان قبل غيرهم إلى الثقافة العربية الإسلامية وعدوها تراثهم وترجموا وصنفوا فيها، فأنشئت لمصنفاتهم المكتبات لخزن وحفظ الكتب ومكاتب للترجمة، والمعاهد والمدارس للدراسة وازدهرت في هذه البلاد الثقافة العربية الإسلامية وتباهت بها الجامعات الاسبانية، وأسست فيها كراسي للغات الشرقية ومنها اللغة العربية، فلقد كانت اسبانيا (الأندلس) معبرا للثقافة العربية الإسلامية إلى عموم أوروبا[2].

7. النمسا:

كان الاتصال السياسي ما بين النمسا والدولة العثمانية هو البداية لنشأة حركة الاستشراق في النمسا لا سيما عندما أرسلت النمسا سفيراً لها إلى الباب العالي فمن خلاله عملت الحكومة النمساوية على جمع الكثير من الكتب والمخطوطات والمصنفات العلمية والثقافية والادبية العربية الإسلامية ونقلها إلى بلادهم، وكان للفترة الطويلة التي أمضاها

---

(1) ينظر العقيقي، المستشرقون، 105.

(2) ينظر العقيقي، المستشرقون، 139 – 140.

سفيرها وهي سبع سنوات مكنته من جمع المزيد من هذه المصنفات. وبعد ان تم نقل هذا التراث الهائل من دويلات الدولة العثمانية، عكف العلماء والمفكرون على دراسة هذه المصنفات فنشأ عندهم ما يسمى بالاستشراق السياسي، ثم تحول بعد حين إلى استشراق علمي وذلك عندما أنشئت مدرسة شرقية سنة 1754م واستدعت الحكومة النمساوية الأب (انطوان عريضة) لتدريس اللغة العربية في جامعة فيينا فوضع هذا قواعد اللغة العربية لطلبتها. فتخرجت منها مجموعة من الطلبة والذين تركوا بعد فترة من عملهم العديد من المؤلفات والأبحاث والدراسات وفي مختلف الجوانب الحضارية التي تخص الشرق عامة والعرب المسلمين خاصة[1].

8. الدنمارك:

إن ظهور الحركة الاستشراقية في الدنمارك جاء كنتيجة لمحاكاة بقية الدول الغربية التي اهتمت بالشرق، وان كان الاستشراق فيها يرجع في بداياته إلى سنة 1557م حيث كانت نشأته بطيئا، إلا أن تأثرهم بالالمان جعل حركة الاستشراق تسرع عندهم أكثر فأكثر فبرز فيهم مجموعة من المستشرقين من الذين أخذوا على عاتقهم دراسة الشرق والكتابة عنه وبمختلف المجالات الفكرية والثقافية والدينية وهكذا.

9. روسيا:

يبدو أن اهتمام الروس بالشرق العربي والإسلامي جاء كنتيجة للاحتكاك مع الدولة العثمانية المجاورة لهم والتي توسعت حدودها على حساب حدود إمبراطوريتهم. فيمكن القول إن الحركة الاستشراقية في روسيا مرت بمرحلتين الأولى في عهد الإمبراطورية الروسية وعلى وجه الخصوص قبل ثورة أكتوبر عام 1917م وهذه المرحلة كانت لا تختلف

(1) ينظر العقيقي، المستشرقون، 174 – 175.

عن مثيلاتها في أوروبا الغربية. وهي دراسة الإسلام وعقيدته ثم العمل على كبح جماح الإسلام وإيقاف مد تقدمه داخل حدود الإمبراطورية الروسية.

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الاتحاد السوفيتي وتأتي هذه المرحلة مباشرة بعد قيام الثورة الشيوعية وتميزت بشكل خاص بالاهتمام بالقضايا المعاصرة. فصار هدف حركة الاستشراق في روسيا الحديثة هي توظيف خيرات الحركة لأجل تطوير العلاقات الاقتصادية والسياسية بين الاتحاد السوفيتي وعموم الدول العربية فكانت الحركة الاستشراقية في روسيا إذن مرتهنة بالقضايا السياسية والاقتصادية والثقافية، فكانت أهدافها ليس بسط النفوذ العسكري فحسب، بل بسط النفوذ السياسي والاقتصادي في عموم الدول العربية فكان المستشرقون الروس هم الأقل عددا بين أقرانهم الغربيين.

10 . الولايات المتحدة الأمريكية:

يرجع اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بالشرق العربي والإسلامي إلى العصر الحديث، عندما بدأت تهتم باللغات السامية وبخاصة اللغة العبرية لتفهم التوراة تمهيدا لدراسة المسيحية وهذا أدى بدوره إلى إغفال اللغة العربية ولو لهذه المرحلة. إلا أنه في نهاية العقدين الآخرين من القرن التاسع عشر أدرك الامريكان أن اللغة العربية لاتقل أهمية عن اللغة العبرية وأنه فيهما اتصال تأريخي وجذري لذا نجدها تحذو حذو بريطانيا فأنشأت جمعية آسيوية سنة 1942م. ثم بدأت بطبع مجلة آسيوية في ولاية بوسطن واهتمت منذ تلك اللحظة بالشرق العربي والإسلامي وعملت على دعم حركة الاستشراق وبكل قوة وانتدبت الدكتور فيليب حتي اللبناني الاصل الامريكي الجنسية لهذا الغرض. وجعلت من جامعة برنستون مركزاً للدراسات العربية واليوم نجد في أمريكا أكثر من تسع جامعات تعمل على إعداد مجاميع من الطلبة المتخصصين في اللغات الشرقية وكان من ثمار هذا الجهد المنقطع النظير الذي قامت به أمريكا والذي قامت به زميلاتها من الدول الأوروبية الشرقية الغربية

في دعم جهود هذه الحركة أن ظهر فيها العديد من المستشرقين من الذين عنوا بالدراسات العربية الإسلامية[1].



(1) ينظر الاستشراق، 3/ 605.

أهداف الحركة الاستشراقية ودوافعها

تبين لنا من الفقرات السابقة والتي تحدثنا فيها بشيء من الإيجاز عن حركة الاستشراق العالمية، ورأينا كيف أن دولهم وحكوماتهم وحتى مواطنيهم أمدوهم بالعون والدعم المالي والسياسي من أجل تحقيق غاياتهم وأنهم أي المستشرقين ضحوا براحتهم وتغربوا عن اوطانهم وقضوا جلّ حياتهم من أجل دراسة الشرق ودوله وبكل التفاصيل الخاصة والعامة، وعانوا من أجل تعلم لغات أهل هذه البلاد ولهجاتها الشيء الكثير. إذن يا ترى ما هي الأهداف والدوافع التي تدفع بهؤلاء وحكوماتهم ودولهم وينفقون من أجل ذلك ملايين الجنيهات لدراسة الشرق والتركيز بشكل خاص على العرب المسلمين؟!

قد يستبد ببعضنا العجب ويقول ما الذي حمل هؤلاء على ذلك! ويتساءل لو أن هذا الجهد المضني والجبار الذي يقوم به هؤلاء المستشرقون لو وظف لدراسة مجالات ذات علاقة بدولهم أو مجتمعاتهم الم يكن أفضل لهم؟! وقد يبرزون ويكون لهم شأن عظيم، يجيب على هذا التساؤل أستاذنا الدكتور العقيقي وهو خير من عالج رغبات المستشرقين واهواءهم ودوافعهم تجاه هذا الموضوع فيقول: «لو انصرف أحدهم طوال حياته إلى حل الكلمات المتعارضة أو جمع طوابع بريدية نادرة أو كتابة القصص البوليسية بدل التحقيق والترجمة والتصنيف لخرجت به من تلك الجزائر المتعددة التي يعيش فيها المستشرقون إلى العالم الرحب في القرن العشرين ولعادت عليه برخاء من العيش وشهرة بين الناس وسلامة من النقاد»[1].

---

(1) ينظر حول ذلك الوحي المحمدي، الكتب الإسلامي، 69.

غير أن الأمر يبدو ليس كما نتصور أو كما يتصور البعض هي مجرد هوايات أو اهتمامات بالشرق الساحر فالمسألة أبعد من ذلك بكثير وأعمق وأدق. وهي ليست مسألة فردية أو عادية أو نشأت هذه الحركة أو جاء هذا الاهتمام من قبيل الصدف. إنها مسألة ذات اهتمام سياسي واقتصادي وديني وثقافي. ساند هذه الحركة الدول الأوروبية قاطبة. وشجعت مؤسسات حكومية ودينية هؤلاء المفكرين على دراسة الشرق وهيأوا لهم أضخم المؤسسات العلمية تساندها مؤسسات سياسية وعسكرية ودينية لتحقيق أهدافها المرسومة لها بأي ثمن وبأي شكل. فلقد أطلق على هذه المؤسسات العلمية (مؤسسة الدراسات الشرقية أو الاستشراقية) أو سمي ما شئت فلا بد ان تكون لهذه المؤسسات أهداف ودوافع معينة محدودة يسعى المهتمون بالشرق العربي والإسلامي لتحقيقها وبمختلف الوسائل مشروعة كانت أم غير مشروعة علمية كانت أم غير علمية شريفة أم غير شريفة ويستطيع أي باحث علمي معاصر ان يشخص هذه الدوافع والأهداف ويحصرها كالآتي:

الدافع الديني:

يمكن اعتبار الدافع الديني هو من أهم أهداف هذه الحركة. فقد كان الاستشراق منذ ظهوره لأول وهلة يعمل على دراسة الإسلام لغرض النيل منه والتشكيك به وفي قيمه ومبادئه وحضارته واصالته وانسانيته ويستند القائلون بهذا الرأي إلى ما كتبه الجيل الأول من المبشرين والمستشرقين وما ذكروه من آراء وتفسيرات وتعليلات غير علمية وغير دقيقة، فخوف رجال الكنيسة في عموم أوروبا من دخول شعوبهم الإسلام دفعهم ذلك إلى تجنيد جيش كبير من هؤلاء المفكرين الذين أطلق عليهم فيما بعد بالمستشرقين، فعملوا على تشويه صورة الإسلام في بلادهم ولا زالوا يعملون بنفس الجهد وبنفس الوتيرة والمسلمون غافلون، لإقناع شعوبهم بعدم صلاحية الإسلام لهم وأنه غير جدير بالاعتناق. لماذا؟ لأن الإسلام دين التوحيد يهدد مواقعهم ومراكزهم الدينية القائمة أساساً على عقيدة التثليث المرتبطة بالأيقونات والطلاسم. يقول الشيخ محمد رشيد رضا في ذلك: «إن رجال

الكنيسة لم يجدوا ما يصدون به اتباعهم عن الإسلام بعد ان رأوه قد قضى على الشرك والوثنية والمجوسية، وكاد يقضي على النصرانية في الشرق. ثم امتد نوره إلى الغرب الا بتأليف الكتب ونظم الأشعار والأغاني في ذم الإسلام ونبيه وكتابه بالإفك والبهتان وفحش الكلام»[1].

أما الباحث الدكتور إدوارد سعيد فيقول عن الهدف «يستطيع كل باحث عن تأريخ الاستشراق أن يتبين بما لا يدع مجالاً للشك أن الدافع الديني كان وراء الاستشراق، ودعم الدراسات الإسلامية والعربية في أوروبا. وقد صاحب الاستشراق طول مراحل تأريخه. ولم يستطع التخلص منه بصورة نهائية وحتى نهاية القرن التاسع عشر، لم يكن الاستشراق قد حرر نفسه من إسار الخلفية الدينية التي اشتق منها أصلا إلا بدرجة ضئيلة»[2].

إذن يمكن أن نعتبر أن الدافع الديني كان من أهم الدوافع إن لم يكن من أعظمها على الاطلاق. لأن هذا الدافع تنوع في اتجاهاته وتميزت هذه الاتجاهات ما بين القوة والشدة وحتى الغلو أحياناً فكان من عظيم هذه الاتجاهات هي محاربة الاسلام، وكيف يتم لهم ذلك الا بالرجوع إلى المصنفات الإسلامية المتعددة ثم التركيز عليها ثم البحث عن نقاط ضعف أو تشابه فيها، ثم العمل على إبرازها والتركيز عليها حتى دفع غلوهم في ذلك إلى اعتبار ان الإسلام ليس ديناً سماوياً وأن ما جاء به محمد ﷺ لايعدو عن اقتباس مأخوذ من الديانات السابقة له مثل اليهودية والنصرانية. بل ذهبوا في تطرفهم إلى أبعد من ذلك فقالوا بأن بعض التشريعات الإسلامية جاءت عن طريق مصادر يونانية وإغريقية، وبالتالي فإن الإسلام ليس له أي دور في إثراء الحياة البشرية وأنه يخلو من أي عطاء انساني أو حتى حضاري فضلاً عن ذلك عمدوا إلى الحط من رسول الإسلام محمد ﷺ ونعتوه بأبشع

(1) ينظر الاستشراق، ترجمة كمال أبو اديب، ط (بيروت: 1981).

(2) ينظر الاستشراق، 101.

الصفات وتكلموا عنه بأسوأ العبارات. إن هذا الهجوم المنظم والمدروس على الإسلام ورسوله مع علمهم علم اليقين بأن الإسلام دين سماوي شأنه شأن بقية الأديان السماوية السابقة له. وأن نبيه محمد ﷺ هو النبي الخاتم الذي بشر به السيد المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. إلا أن كفرهم وعنادهم وجحودهم بالحقيقة الناصعة، نابع من خوفهم على مصالحهم وعلى معتقدات النصارى من خطر الإسلام الذي يدعو إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وحده وإن ما قاموا به من تضليل لشعوبهم وبوسائلهم الفاسدة هي للحيلولة دون اطلاع مواطنيهم على حقيقة الاسلام. بل أشاعوا لهم وأظهروا لهم المسائل الخلافية بين المسلمين والتي صعب عليهم ادراكها. وبالتالي أوصلوهم إلى نتيجة واحدة مفادها أن الإسلام يمثل خطرا على شعوبهم وحذروهم منه. ونقلوا لهم صورة غير سليمة عن الإسلام والمسلمين صورة هم صنعوها وكيفوها لتوافق آراءهم لكي يكون هناك حاجزٌ عظيمٌ ووادٍ عميق يحول ما بين النصارى وما بين الاسلام، الإسلام الذي يدعو إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وجعل الناس امة واحدة والعمل على عبادته من دون الايقونات أو الطلاسم والتوجه إليه من دون توسط رجال دين أو رهبان للتقرب إليه. ومن أجل تفويت الفرصة على المسلمين لنشر دعوتهم بين النصارى في أوروبا وغيرها من بلدان العالم، عمدوا إلى التبشير والتنصير ووظفوا لهذه العملية جيوشاً من الرهبان والقساوسة ورجال الدين وبذلوا لهم الأموال وقدموا لهم كل الإمكانيات السياسية واللوجستية من أجل نجاح عملهم هذا. إن هذا العمل إنما يدل على ردة فعل عنيفة ضد الاسلام، فهم بهذه الطريقة عمدوا إلى محاربة الإسلام في عقر داره واتبعوا من أجل تحقيق ذلك كل الوسائل الشريفة وغير الشريفة والمسلمون عن هذا غافلون بل ان البعض منهم يطبِّل ويزمِّر وهذه هي والله الطامة الكبرى!.

فكانت جهود الحركة الاستشراقية من خلال أتباعها تقوم على:

1. منع انتشار الإسلام ومحاربته بكل وسيلة في أوروبا.

2. المحافظة على سلطة الكنيسة بكل الطرق والوسائل.

3. العمل على نشر العقيدة النصرانية في عموم البلدان العربية والإسلامية وعلى مستوى العالم كله.

4. العمل على نشر ما يسمى بالعلمانية وهي فصل الدين عن الدولة كما هو حاصل في أوروبا وفي عموم البلدان العربية والإسلامية وقد تكللت جهودهم بالنجاح في بعض البلدان الإسلامية والعربية.

إن الخوف من انتشار الإسلام في أوروبا ظل هاجس يؤرق الكنيسة والحكومات الأوروبية العلمانية. يقول الأستاذ إدوارد سعيد في هذا المجال «فقد حمل الاستشراق الحديث في ذاته معالم الخوف الأوروبي العظيم من الاسلام، وقد زادت ذلك حدة التحديات السياسية في مرحلة ما بين الحربين»[1].

وهل اكتفت الحركة الاستشراقية بما حققه أتباعها من هذا الهجوم الشرس على الإسلام ورسوله؟!، الجواب وبكل بساطة كلا. فلقد سعوا هؤلاء إلى المزيد ثم المزيد ولم يتركوا للمسلمين فرصة لالتقاط الانفاس. فهم يحاولون منذ قرون تحصين أوروبا من الغزو الإسلامي ثم العمل على تحويل المسلمين عن دينهم وإشاعة البلبلة والخلافات العقائدية في صفوفهم، لكي يجعلوا من البلاد الإسلامية مثلاً سيئاً للغرب عن الإسلام والمسلمين.

ومن المضحك المبكي أن هؤلاء برغم رفضهم الإسلام ظاهرا، إلا أنهم عملوا على الأخذ بالعديد من الأفكار الإسلامية من الإسلام وألبسوها رداء الكنيسة حتى تثبت أقدامها بعد الزلزال الذي اصابها بعد حركة الاصلاح الديني التي قادها المتحرر(مارتن لوثر) وهي بفصل الدين عن الدولة ما لقيصر لقيصر وما لله لله[2].

---

(1) للمزيد عن هذا الموضوع يراجع مقال الدكتور محمد فتحي عثمان، مجلة كلية الشريعة، العدد5، 37 وكذلك مجلة العربي العدد 252، 37 – 38.

(2) ينظر كتابة الدعوة إلى الإسلام ترجمة ، جميل معلس، دار اليقظة العربية، 1946 أماكن عدة.

ثم عمدوا بعد ذلك إلى نشر أبحاثهم ودراساتهم ومؤلفاتهم عن البلاد الإسلامية والفكر الإسلامي في مصنفات علمية ونشروها في بلدان العالم الإسلامي والعربي مثل دائرة المعارف الإسلامية وهي عبارة عن بحوث كتبها مستشرقون عن الإسلام والمسلمين وكان الهدف من نشر هذه الموسوعات أو المؤلفات داخل بلاد المسلمين هو تعليم المسلمين إسلامهم من خلال هذه المصنفات. وقد شاعت بين المسلمين على انها دراسات علمية لا ضير منها وهذه هي المأساة الكبرى. وقد رحب العديد من الدارسين والباحثين العرب المسلمين بمؤلفات هؤلاء واعتبروها مرجعا علميا لهم من دون العودة إلى المصادر الأصلية والتحقق من صحة هذه المعلومات. إن هذه المؤلفات التي شاعت بين المسلمين وغزت مكتباتهم كان الهدف منها هو تحطيم وحدة المسلمين فكريا وعقائديا وإحداث البلبلة الفكرية في صفوفهم وذلك عندما ركز هولاء المستشرقون بالبحث والتقصي عن الفرق والمذاهب الإسلامية فأدى ذلك إلى تمزيق وحدة المسلمين ووحدة العالم الإسلامي وإضعاف روح الإخاء بين المسلمين عن طريق إحياء القوميات وإثارة كل ما شأنه تحطيم هذه الوحدة، وما نراه اليوم من تمزق للعالم العربي الإسلامي لهو خير دليل على نجاح الحركة الاستشراقية في أهدافها.

الدافع العلمي:

على الرغم مما صاحب حركة الاستشراق من اجحاف بحق الإسلام ورسوله، إلا أن هذه الحركة خدمت التراث الإسلامي عن طريق جمعه وتحقيقه والحفاظ عليه من الضياع. ولقد عمل بعضٌ من رواد هذه ومن الذين تولوا رعايتها والعمل على استمرار العمل فيها. نرى هذه القلة ولاسيما في عصر التنوير فبعد ان قرؤوا المصنفات الإسلامية في مختلف علوم المعرفة أدركوا أن رسالة الإسلام قريبة من الرسالات السماوية السابقة له بل ومؤيدة لما كان من قبلها من رسل وكتب سماوية. إلا أن هؤلاء وكما قلنا كانوا قلة ولم يكن لهم تأثير كبير تجاه القوة الغالبة من رفاقهم. ومع ذلك سعوا إلى القول بكل قوة وجرأة بأن

الإسلام يدعو إلى الخير والحق والصلاح وهم على الرغم من قولهم ذلك فهم لا يسلمون من الاخطاء أو الاستنتاجات البعيدة عن الحق إما لجهلهم بأساليب اللغة العربية وبلاغتها وإما لجهلهم بالاحوال التأريخية للمسلمين تعد هذه الفئة من أسلم الفئات الاستشراقية التي لم يكن لها أهداف دينية أو علمية مشبوهة أو دينية مناهضة أو سياسية استعمارية بغيضة.

ولقد عانت هذه الفئة عنتا كبيرا من أصحاب الأهداف والميول الدينية والسياسية، حيث اتهم أتباعها بالانحراف عن المنهج العلمي أو الانسياق وراء العاطفة أو الرغبة في مجاملة المسلمين والتقرب اليهم. كما فعل المستشرق توماس أرنولد في كتابة الدعوة إلى الإسلام حيث أشاد ببعض الافكار الإسلامية ولم يكن متحاملاً على الإسلام ورسوله كما فعل غيره [1].

وتميز بعضٌ من أصحاب هذه الفئة العلمية من الذين عكفوا بحق وصدق على دراسة الإسلام وعقيدته بأن دخلوا فيه ثم الدفاع عنه كما فعل المستشرق الالماني (دينيه)[2]. وسنقدم قائمة بأسماء من دخل الإسلام من هؤلاء.

الدافع الاقتصادي:

كانت أوروبا تنظر إلى الشرق بعين السيطرة والاستحواذ وتحت ذرائع شتى وما غزوة أبرهة الحبشي على مكة إلا حلقة من حلقات السيطرة والاستحواذ على ما في هذه البلاد من خيرات[3]. ومن هنا فإن فكرة السيطرة على الشرق ونهب خيراته وامتلاك أسواقه وتجارته

---

(1) ينظر حول ذلك السباعي، الاستشراق، 73 – 75.

(2) ينظرحول ذلك رياض هاشم، حملة ابرهة الحبشي على مكة، مقال منشور في مجلة آفاق الثقافة العدد 35 / 2002 دبي 20.

(3) ينظر السباعي، الاستشراق، 74 – 75.

والاستحواذ على الطرق التجارية فيه، كان حلماً يراود الأوروبيين فلقد كانت تجارات الشرق تكلف الأوروبيين مزيداً من الأموال والعملة الذهبية وما رحلة فاسكوردي جاما لعبور رأس الرجاء الصالح إلا بداية لهذه الحملة الاقتصادية السياسية الاستعمارية. فإذا فشل أبرهة في تحقيق حلم أوروبا فاليوم العديد من أمثاله يلبون رغبة حكامهم.

ولقد زادت طموحات الغرب للسيطرة على الشرق منذ مطلع القرن التاسع عشر واستمرت مع بداية القرن العشرين فلقد كان للثورة الصناعية في أوروبا والرغبة في الحصول على المواد الاولية والاسواق لترويج منتجاتهم سبباً مباشراً للتطلع إلى الشرق الذي يلبي هذه الطموحات. ومن أجل ذلك وجدوا أن الحاجة ماسة للسفر إلى الشرق والتعرف على البلاد العربية والإسلامية ودراسة جغرافيتها الطبيعية والبشرية والاقتصادية والزراعية والمناخية، حتى يكون بإمكانهم التعامل مع أهل هذه البلاد ويحققون ما يصبون إليه من تحقيق مكاسب تجارية تقود إلى نمو تجاراتهم وتحقق لهم الربح الوفير. لذلك قامت المؤسسات المالية والشركات التجارية وبمساندة الملوك والامراء والقادة العسكريين بتزويد هؤلاء المستشرقين وإمدادهم بما يحتاجون إليه من أموال وإسناد حكومي وسياسي وقدموا لهم الدعم اللامحدود، على الرغم من ذلك كان عدد أعضاء هذه الفئة من المستشرقين قليل[1]. غير أنهم أمدوا حكامهم والمؤسسات الراعية لهم بالقواعد والأسس التي قامت عليها اعمالهم التجارية، حيث أصبح الشرق العربي والإسلامي بكافة بلدانه سوقاً لمنتجاتهم الصناعية ومورداً للمواد الاولية التي تحتاجها صناعاتهم.

الدافع السياسي والاستعماري:

يعد الدافع السياسي (دافع استعماري) من أهم الدوافع قاطبة للحركة الاستشراقية وهو قائم على اهتمام الغرب المنقطع النظير بالشرق العربي والإسلامي. فلقد كان الهدف من هذه

(1) ينظر الدكتور عرفان عبد الحميد، المستشرقون والإسلام، ط\ 22 – 23.

الحركة واضح وضوح الشمس وهو بسط السيطرة والنفوذ المباشر والفعلي على بلدان العالم العربي والإسلامي والسيطرة على مرافقه الحيوية من تجارة ومواد اولية واسواق وطاقات بشرية لأن الهدف الاقتصادي لا يتم تحقيقه إلا بتحقيق الهدف السياسي أو الاستعماري فكان لا بد والحالة هذه من العمل على السيطرة الفعلية المباشرة على هذه البلاد وجعلها مرتبطة بكل مرافقها بالدولة المستعمرة لها وقد رافقت حركة الاستعمار هذه الحركة نحو حركة نمو تجاري عظيم وهذا لم يتحقق إلا بعد أن فرض الغرب سيطرته على البلاد العربية الإسلامية ما بين القرنين التاسع عشر والعشرين ومن أجل بسط السيطرة والنفوذ كان لا بد من إعداد جيش من المستشرقين الذين يعملون على بسط الأرض وتهيئة الأجواء لكي يقوم القادة العسكريون بالسيطرة الفعلية. فعمد هؤلاء أي المستشرقون إلى دراسة اللغة العربية بل حتى اللهجات المحلية في الدول التي كلفوا دراستها والعمل على تبصير القادة العسكريين بكل ما يخدم السيطرة الفعلية العسكرية عليها. حتى كان بعض منهم يعين حاكما عسكريا لإجادته اللغة العربية وعادات وتقاليد أهل البلد التي قسمها الغرب فيما بينهم كغنائم حرب. بل إن بعضا من هؤلاء المستشرقين كان له اطلاع على القضايا الشرعية الإسلامية.

ومن الأهداف المرتبطة بالهدف السياسي الاستعماري هو العمل على خلق جيل جديد من العرب المسلمين يتنكر لكل ما هو مرتبط بالإسلام وعقيدته وجعلهم يحتقرون دينهم ويتهكمون على الأخلاق الإسلامية من حشمة ووقار وخجل وحياء وتمسك بمبادئ الدين الحنيف وجعلهم في المقابل يعظمون كل ما هو غربي يدعو إلى التحلل من الأخلاق والحشمة والحياء والوقار واحترام المعتقدات واشاعة الاختلاط والدعوة إلى تحرير المرأة من قيود وأغلال الإسلام وجعلها سلعة تباع وتشترى في سوق النخاسة الأوروبية والعربية كما مهدوا لجيل كبير من طلبة العلم العرب والمسلمين فرص الدراسة في الجامعات الغربية القائمة على العلمانية ونكران الدين وجاء هؤلاء بعد سنوات ونقلوا هذه الافكار إلى بلادهم فتنكروا للدين والعقيدة والتراث وعملوا على إشاعة تراث الغرب بما فيه من ضلالات.

ويؤيد ما ذهبنا إليه الدكتور عرفان عبد الحميد حيث يقول: «إن الاستشراق كمنهج علمي لقاح أبوين غير شرعيين، التبشير الذي خطط له الاستعمار الذي غذاه ولا يزال يعمل من أجل أهدافهما وهو تقويض أركان العقيدة الإسلامية وإحلال تصورات ومفاهيم مناهضة لهذه العقيدة وتكوين شبكة فكرية في العالم الإسلامي تدور في فلكه وتبشر بتعاليمه وتستمد منه هذا الاستمداد الفكري والدعوة له هو الهدف للاستشراق ينتهي الأمر إلى خلق جيل يتنكر لتراث هذه الأمة ومثلها في الحياة والعمل من أجل اجتثاث الجذور التأريخية المقومة لشخصية هذه الأمة، لتصير إلى حيرة واضطراب فكري وخلاء روحي فيسهل عنده غزو المجتمع الإسلامي بالفكر والمبادئ والمفاهيم والتصورات الغريبة على دين الأمة وعقيدتها[1].



(1) ينظر الفكر الإسلامي، 520.

وسائل حركة الاستشراق في غزو الشرق

لقد تنوعت وتعددت وسائل وسبل المستشرقين في نقل أفكارهم وثقافاتهم إلى الأجيال العديدة من شباب الأمة من كلا الجنسين وعلى وجه الخصوص عندما ركز اقدامه في الشرق العربي والإسلامي فكانت:

1. المدارس والمعاهد والجامعات والندوات والمؤتمرات والنوادي الرياضية والكتب والمجلات والمخيمات الكشفية والمستشفيات والطباعة ودور النشر والقنوات الفضائية والانترنيت... الخ من هذه الوسائل المهمة في نشر أفكارهم وطروحاتهم بين ابناء الأمة الإسلامية فكانت هذه الوسائل كفيلة بنقل ثقافات الغرب وما يجول في أذهان المستشرقين والذي كان هو خلق هوّة سحيقة ما بين القديم ذي الأصالة في النفوس وما بين الجديد الفاقد لكل عناصر القوة والاصالة وخلق ما يسمى بالإسلام المعاصر الذي يواكب التطور الحضاري للامم ويتعايش مع الثقافات الوجودية والوثنية والشركية سواء بسواء ما بين الإسلام الحقيقي القائم على مكارم الأخلاق والتمسك بمبادئ الدين الحنيف إلى إسلام معاصر لا يعرف المنتسب إليه سوى تأدية الشعائر والطقوس ومن أشهر هذه المؤسسات التي لعبت دورا كبيرا في نشر الثقافة الغربية بين المسلمين في الشرق هي (جامعة القديس يوسف) في لبنان وهي جامعة بابوية كاثوليكية وتعرف (بالجامعة اليسوعية) وكذلك الجامعة الأمريكية ببيروت والتي كانت من قبل تسمى (الكلية السورية الانجيلية) ثم كلية بيروت والتي أنشئت في عام 1865م وهي جامعة بروتستانية والكلية الأمريكية في القاهرة والتي اصبحت تعرف فيما بعد (بالجامعة

الأمريكية) وكان الهدف من إنشاء هذه الجامعة والانفاق عليها الأموال الطائلة هي لمنافسة الجامع الأزهر وهو أكبر مؤسسة إسلامية تقوم على تدريس العلوم الإسلامية جنبا إلى جنب مع العلوم البحتة. وكلية روبرت في استنبول والتي تغير اسمها فيما بعد إلى الجامعة الأمريكية، والكلية الفرنسية في مدينة لاهور وكان السبب في إنشاء هذه الجامعة في هذه المدينة الإسلامية لأنها المدينة الإسلامية الوحيدة في شبه القارة الهندية والمتميزة بأصالتها الإسلامية آنذاك.

2. المعاهد والجامعات: فلقد عكفت الحركة الاستشراقية على إصدار العديد من النشرات بهدف الترويج للافكار التي تنادي بها هذه الحركة وهي نشر المعتقدات الدينية الغربية في ربوع العالم الإسلامي والعربي. ومن أبرز هذه المنشورات ما أصدرته الجامعة الأمريكية في بيروت عام (1909م) رداً على احتجاج الطلبة المسلمين لاجبارهم يوميا على الدخول إلى الكنيسة قبل الدخول إلى القاعات الدراسية. وفي ذلك يقول الدكتور محمد لبهي (يتضح من المادة الرابعة من طابع هذه المؤسسة العلمية في ظاهرها وامثالها ونصت هذه المادة على ما يلي: «إن هذه الكلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي، وهم اشتروا الأرض وهم أقاموا الأبنية وهم أنشأوا المستشفى وجهزوه ولايمكن للمؤسسة أن تستمر إذا لم يسندها هؤلاء. وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليما يكون الإنجيل من مواده فتعرض المنافع الحقيقة المسيحية على كل تلميذ... وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف سابقا ماذا يطلب منه»[1].

وكانت مصر في القرن الماضي مجالا خصبا للصحافة الحرة التي استخدمها المبشرون لنشر معتقداتهم بين المصريين المسلمين، فأخذ هولاء المبشرون بلعب دور خطير في التبشير بالنصرانية والتمهيد للاستعمار ليغزو مصر ثم يحكمها وهذا الأستاذ عمر فروخ

(1) ينظر التبشير والاستعمار، ط (مصر، د/ ت) 207 – 208.

يقول (يعلن المبشرون أنهم استغلوا الصحافة المصرية للتعبير عن الآراء المسيحية أكثر مما استطاعوا في أي بلد اسلامي آخر، لقد ظهرت مقالات كثيرة في عدد من الصحف المصرية اما مأجورة في كثير من الاحيان أو بلا أجر في أحوال نادرة)[1].

كما أن قسماً كبيراً من أعضاء الحركة الاستشراقية هم من رجال الدين المبشرين الذين كانوا يسيرون وفق خطط علمية منهجية مدروسة من أجل نشر عقيدتهم النصرانية بين المسلمين وغيرهم وخصوصا في البلدان العربية والإسلامية. فلقد منحتهم الحكومات العربية في مطلع القرن العشرين تسهيلات كبيرة للتحرك داخل بلادها مما مكنهم ذلك من التحرك والتنقل داخل البلاد العربية بأمان بل تحت حماية من الدولة في كثير من الاحيان. فلقد كانوا يقيمون الندوات والمؤتمرات الدورية من أجل متابعه اعمالهم ونشاطاتهم وكانت هذه المؤتمرات والندوات تقام بتمويل من الكنيسة الغربية والتي عقدت في سنة 1906م مؤتمراً في القاهرة ثم مؤتمراً في سنة 1911م في بيروت ثم مؤتمراً في القدس عام 1935م. وكانت هذه المؤتمرات دورية وكانت محاورها تدور حول النتائج المتحققة من تلك الحملات التبشيرية والتي عكف عليها المبشرون والمستشرقون بسواء. فكانت توضع الخطط الجديدة ثم يجري تنفيذها في سرية تامة وبهمة عالية»[2].

وكان من تاثير تلك الوسائل والطرق التي اتبعها هؤلاء المبشرون والمستشرقون داخل البلاد العربية والإسلامية ومن خلال تلك المؤسسات العلمية والخدمية والتي كان في ظاهرها أنها تهدف لتحقيق مساعٍ علمية إنسانية ثقافية، غير أن في حقيقتها مؤسسات تعمل لخدمة المصالح الغربية في الشرق، وكان من ثمار هذه الحملات المستمرة ظهور جيل جديد من المثقفين العرب والمسلمين فكانوا صورة لما يمثله الغرب من تحرر خلقي

---

(1) ينظر د. محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، 530.

(2) ينظر البهي، المبشرون والمستشرقون وموقفهم من الإسلام، مطبعة الازهر 81 – 82.

وعقيدي وفكري. فلقد تعاطف هؤلاء مع الأفكار الغربية وعملوا على نشر ثقافاتها الإلحادية. بل إن بعضاً منهم وصل إلى مرافق مهمة في الدولة وكان بيده اتخاذ القرار فعمل على تقليد الغربيين بكل مناحي حياتهم في حين أن بعضاً من هؤلاء المفتونين بالغرب عملوا على نشر الحركة العلمية القائمة على الافتتان بالعلم الطبيعي أو ما يسمى بالطبيعة (يؤدي إلى خفة وزن القيم الروحية والمثالية وهي القيم التي تقوم عليها رسالة الأديان السماوية والتي يمثلها الإسلام أوضح تمثيل. ولم يكن السير احمد خان داعية فقط لهذا التجديد أو لهذه التقدمية في الاسلام، بل كان صحفياً ومدرساً ومشرفاً على كلية علمية ودينية هي الكلية الانجليزية الشرقية المحمدية) وكان يدرِّس سابقا في هذه الكلية الدين المسيحي بجانب الدين الإسلامي[1].

ومن المتأثرين بهذا التيار العلماني الذي نادى به عموم المستشرقين الدكتور طه حسين وهو الذي نادى بالتجديد في الأدب العربي في مصر وحركته تلك تقوم على الانطلاق في التفكير الحر الرزين جريا وراء الحقائق. وكان الدكتور طه حسين قد عُين عميداً بكلية الآداب بجامعة القاهرة، ثم عُين وزيراً للمعارف المصرية وهو الذي لقب بعميد الأدب العربي. وهو الذي بدأ أول عمل له رئيسا لتحرير مجلة الكاتب المصري وهي مجلة تصدرها شركة الكاتب المصري، كما ألف العديد من الكتب منها الشعر الجاهلي. ومستقبل الثقافة في مصر[2]. وجميع هذه الكتب كانت ذا طابع تحرري بعيد عن الدين. وكتابه الذي ذاع صيته (الشعر العربي) يقوم على فكرة واحدة هي أن الشعر العربي لا يمثل حياة العرب قبل ظهور الاسلام. وهو القائل (إن القرآن مرآة للعصر الجاهلي) ثم يستطرد في انتقاصه لإعجاز القرآن الكريم فيؤيد القول بأن الإسلام دين بشري وأن القرآن ليس وحياً إلهياً وإنما كتابا قاله صاحبه لقوم معنيين وكان من نتيجة ذلك انقسام المثقفين إلى من هو مؤيد لما قاله طه حسين

---

(1) ينظر البهي، المكان نفسه.

(2) ينظر البهي، المستشرقون، 83 – 84.

ومنهم من كان رافضا لأقواله.

وفي هذه المداراة حقق طه حسين هدفاً عظيماً من أهداف الحركة الاستشراقية والذين بذلوا جهد أعمالهم من أجل تحقيقه والوصول إليه وهو (أن القرآن موضوع وليس وحياً من الله. وأن القرآن كان مرآة لأفق خاص من الحياة، وهو أفق من عقائد تحاكي العقائد المنتشرة آنذاك في شبه الجزيرة العربية لاسواها)[1].

وبهذه النتائج المغلوطة سيكون الدكتور طه حسين قد سار أو على الاقل وافق الآراء التي سبقته والتي نادى بها المستشرقون من أمثال (جب) أستاذ الدراسات العربية بجامعة هارفرد بالولايات المتحدة الأمريكية في كتابة (المذهب المحمدي) ويتفق كذلك مع صاحب كتاب (مصادر الاسلام) الذي يذهب إلى ما ذهب إليه زميله (جب) من أن شرائع الإسلام جاءت من شرائع الأديان المعاصرة له والمنتشرة آنذاك في الشرق مثل اليهودية والنصرانية والهندية والصابئة والوثنية، وهكذا جعل الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي ومن وافقه على قوله أن الإسلام دين شخصي لايمت إلى الله عَزَّوَجَلَّ باي صلة وذلك لكي يرضي أساتذته من المستشرقين الذين ما فتئوا يطعنون في الإسلام، فلقد كفاهم هو وغيره هذا الجهد وتكفل هو ليحمل وزرهم إلى يوم القيامة.

3. الكتب والمؤلفات المتنوعة:

ومن الطرق والوسائل التي اتبعها المستشرقون في نشر آرائهم وأفكارهم داخل المجتمعات العربية والإسلامية هو قيامهم بتأليف العديد من الكتب عن الإسلام ورسوله وثقافته ثم أقاموا موازنة ما بين ما أرادوهم ذكره عن الإسلام من سلبيات ألصقوها به زوراً وبهتاناً مع ثقافة الغرب، ومن خلال تلك المقارنة وصلوا إلى نتيجة واحدة هي أن الإسلام بهذه الثقافة لايصلح للغرب كدين أبدا. ومن الامور التي ركزوا عليها هي إبراز الخلافات

(1) ينظر البهي، المكان نفسه.

الدينية والمذهبية والقومية وسلطوا الاضواء الساطعة على الفجوات والمشاكل الفكرية بين الطوائف الإسلامية والمذهبية والجغرافية بل وحتى القومية وإبراز حالات الاقتتال والصراع السياسي داخل المجتمعات العربية والإسلامية، كأن أوروبا لم تعش ابداً حالات من الحروب الاهلية ولا الصراعات القومية والدينية والفكرية وشيوع الفقر والجهل والمرض في ربوعها، ألم يذكروا أن الحرب العالمية الأولى والثانية قتلت من رجالهم مئة مليون وشردت مئات الملايين وانفقوا عليها مئات الملايين من الجنيهات ولا زالت أوروبا تعاني حتى اليوم من آثار تلك الحربين.

وبهذه الطروحات الكاذبة المغلوطة نفروا الأوروبيين من الإسلام وخلقوا عندهم ذعراً عظيماً من أي شيء يمت بصلة إلى الإسلام والمسلمين ورسوله.

فضلا عن ذلك كانت هذه المؤلفات في غالب الاحيان مدعومة بصور ووثائق من أجل اقناع المواطن الأوروبي بصحة ما ذهبوا إليه من طرح. لقد كان العديد من هؤلاء المستشرقين يصلون إلى البلاد العربية والإسلامية ويجوبون معظم ارجائها بصفة سياح أو زوار أو جغرافيين أو رحالة أو طلاب علم ويكتبوا عن ما شاهدونه ويجروا أحياناً لقاءات مع الناس البسطاء. تجمع هذه المواد ويصاغ إلى تحويرها وتغييرها بموجب ما يرغبون، وكان التركيز يتم غالباً على مواطن الضعف في هذه البلاد وهكذا صوروا العرب والمسلمين بصور مضحكة وسخروا أقلامهم للكتابة والتشهير وكانوا ينفقون من أجل الحصول على هذه الصور المؤلمة المضحكة آلاف الجنيهات. لقد كان لهذه الصور اثرها السيئ على صورة العربي والمسلم في أوروبا، كأنهم كانوا يريدون ان يقولوا لمواطنيهم هؤلاء هم المسلمون هل تريدون أن تكونوا مسلمين؟

بل ذهب المستشرقون إلى أبعد من ذلك فهم باسم البحث العلمي والموضوعية والمنهجية الاكاديمية ألفوا في علم الأجناس وخصوا الشعوب العربية والإسلامية بهذه الدراسات تحت اسم (علم الاجناس وسوسيولوجية الشعوب) وخرجوا بنظريات خطيرة

جداً فمن خلالها قسموا العالم الإسلامي والعربي إلى شلشل وأجزاء فقالوا تحت مسميات علم النفس ان الإسلام ليس ديناً واحداً بل متعدد الأديان. فهناك على سبيل المثال إسلام هندي وإسلام بربري وإسلام تركي وإسلام مصري وإسلام اندونسي وإسلام افريقي خاص بالسود. وكل اسلام يختلف حسب نظرياتهم الجوفاء عن الآخر. فهو يختلف باختلاف الجنس والقومية واللغة فكل شعب من هذه الشعوب لهم فهم خاص للإسلام وللقرآن والسنة النبوية وكل منهم يطبق الإسلام على طريقته الخاصة، وبما يوافق المصادر التي يستقي منها مفاهيمه وتشريعاته وهكذا رسموا لنا الإسلام مجزأ غير موحد ومع شديد الأسف كثير من البلدان الإسلامية والعربية تقبلت هذا المنهج وساد في ربوعها وأصبحت تدافع عنه في حين نرى ويرى كل المسلمين أصحاب العقيدة الصحيحة أن هذا التصور خاطئ من أساسه ويقوم على فكرة مغلوطة معدة سلفاً. إن الإسلام لا يتجزأ فالمسلمون اخوة سواءً كانوا هنوداً أم بنغالاً أم صينيين أم روساً أم عرباً أم اكراداً أم تركماناً فهم يتوجهون لقبلة واحدة ويدعون لإله واحد ويتبعون نبياً واحداً. إن الذي ساعد هؤلاء المستشرقون على رسم هذا التصور عن العالم العربي والإسلامي هو تجزئته إلى دويلات وإمارات مستقلة عن قلب الدولة المركزية.

فمن خلال هذه المسيرة التي تحدثنا بها آنفاً عن طرق ووسائل الحركة الاستشراقية في نقل أفكار وثقافات اتباعها إلى داخل المجتمع العربي والإسلامي، والدور الفعال الذي لعبوه في خلق جيل من الشباب المسلم والذي لا ينتمي إلى الإسلام الحقيقي القائم على المنهج الرباني والخلق النبوي بل أصبح لدى بعض الشباب إسلاماً شكلياً هو عبارة عن تادية الطقوس والشعائر من صلاة وصوم... الخ.

إذن كيف استطاعت الحركة الاستشراقية تحقيق هذه المنجزات الكبيرة العظيمة؟ خلال قرنيين من الزمان أو يزيد بقليل، وما هي المؤثرات التي جعلت لأعوانها هذه المكانة وهذا الدور الذي مكنهم من تغيير المنهج التربوي الإسلامي إلى منهج علماني دنيوي؟

مما لا شك فيه ان المستشرقين اتباع الحركة الاستشراقية سلكوا عدة طرق واتبعوا انجع الوسائل في سبيل تحقيق ذلك وبسرعة كبيرة جداً منها:

التدريس المتخصص أو ما يسمى بالتدريس الجامعي، لقد أنشأت الحكومات الأوروبية والأمريكية في كل دولة عربية أو إسلامية مهمة معهداً أو مركزاً خاصاً بالدراسات الإسلامية والعربية بل يوجد في بعض الجامعات أكثر من معهد أو مركز متخصص في دراسة الشرق العربي والإسلامي بكل خصوصيات الغرب والمسلمين واعدوا لهذه المعاهد كادراً متخصصاً من الباحثين من الذين أعدوا لهذه المهمات سلفاً منذ زمن بعيد وأنفقوا عليهم الأموال الطائلة والهبات المجزية والعطايا الكبيرة ومنحوهم دعماً حكومياً وسياسياً من داخل الدولة وخارجها. ومن أمثال هذه المدن التي تميزت برعاية الحركة الاستشراقية مدينة (ميونخ) حيث يوجد بها جامعة وداخل هذه الجامعة والتي يطلق عليها جامعة ميونخ معهد للغات السامية والدراسات الإسلامية ومعهد لتأريخ وحضارة الشرق الأدنى والاوسط، ويرأس كل معهد من هذه المعاهد باحث بدرجة «أستاذ» يساعده في ابحاثه مجموعة من الباحثين المتخصصين. وتقوم هذه المعاهد بمهمة التدريس الجامعي، حيث يخصص مجموعة من الشباب من الذين تتوفر فيهم مواصفات خاصة للقيام بمثل هذه الأعمال حيث يعلمونهم اللغة العربية وآدابها وعادات وتقاليد الشعوب العربية والإسلامية بل حتى لهجاتها، وبدعم هؤلاء الطلبة بشكل مستمر حتى ينالوا درجتي الماجستير والدكتوراة، ويعد هؤلاء في مجالس الاستشراق حصراً، ثم يرسلون بعد ذلك الاعداد العلمي والفكري والثقافي للعمل في الدول العربية والإسلامية بعدة صيغ منها العمل كسفراء أو دبلوماسيين أو يوفدون للعمل إلى الجامعات العربية أو الإسلامية بصفة أساتذة زائرين أو لإلقاء محاضرات على الطلبة العرب والمسلمين، وقسماً كبيراً منهم بعد عودته من الشرق يعمل على التأليف والنشر أو إجراء لقاءات تلفازية، كما أن هؤلاء يقومون باختيار قسماً من الطلبة العرب والمسلمين للدراسة في جامعاتهم وتخريجهم تلامذة لهم. وهكذا تستمر هذه الحلقات ومنذ عدة سنوات، فجل اهتمام هؤلاء المستشرقين هو دراسة الإسلام وعقيدته ورسوله ثم

العمل على تشويه هذا الدين بعدة أساليب منها الكذب والخداع والمراوغة والتشويه وقلب الحقائق[1].

إن هذا الاهتمام المنقطع النظير لهؤلاء الباحثين الغربيين والذين يطلق عليهم «المستشرقين» في دراسة الشرق العربي والإسلامي مكنهم هذا الاهتمام من التعرف على الكثير من الثقافات التي توجد داخل المجتمعات العربية والإسلامية. بل إنهم تحدثوا عن الإسلام وعلومه واللغة العربية وآدابها بشكل يفوق الباحثين العرب والمسلمين، مما دفع بالعديد من المنهزمين والمفتونين بهم إلى حد الاعجاب بما أنجزوه. وهذا أحدهم يشير بإعجاب كبير إلى بصيرتهم وجلدهم وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم في عملهم[2]، كأنهم الذين صنعوا مجد الأمة وليس أهلها من اجداده الكرام.

ومما ساعد هؤلاء المستشرقون في إحداث هذا التفوق والذي أبهر البعض، هو عدم اكتراث الأجيال الصاعدة من الباحثين والدارسين من العرب والمسلمين بتراثهم وعقيدتهم ولغتهم. ووصل بعضهم إلى حد التنكر لهذا التراث العظيم والحضارة الباهرة للأمة العربية والإسلامية. مما فسح المجال لهؤلاء المستشرقين للتفرغ والعمل بكل الوسائل لدراسة تراث هذه الأمة، ثم الكتابة فيه حتى اصبحوا هم المراجع العلمية لتاريخ حضارتنا وهذا مما يؤسف له حقاً أن يترك لغيرنا تقدير مصير حضارتنا والعبث بها.

بل إن قسماً كبيراً من هؤلاء المستشرقين عكفوا على دراسة كل المصنفات العربية والإسلامية وكتبوا بها إما شرحاً لها أو تعليقاً عليها أو تحقيقاً لها، فعملوا على الحفاظ عليها من الضياع وعدوها مراجع علمية لهم، كما ألفوا فيها دراسات بما يماشي رغباتهم وأهوائهم، ودفعوها إلى مكتباتنا العلمية الخاصة والعامة. ولهذا لانجد مصدراً يعود إلى

(1) ينظر مصطفى عبدالرزاق، تمهيد التاريخ الفلسفة الإسلامية. 27 – 28.

(2) ينظر زقزوق 27 – 28 وينظر كذلك نوري، المستشرقون، عدة أماكن.

القرن الأول الهجري موجوداً في المكتبات العربية والإسلامية الا ونجد النسخة الأصلية عندهم. وقد اهتموا بها وحافظوا عليها إلا أن المشكلة التي وقع فيها هؤلاء على الرغم من جهودهم تلك فإنهم عندما عكفوا على دراسة تراثنا درسوه وفق منهجيتهم هم وطبقوا عليه أسس البحث العلمي الخاص بهم هم فعليه نجد مثلاً المتمكنين منهم والأفذاذ في مجال تخصصهم، لا تأخذهم العزة بالإثم إذا ما تم التنبيه إلى خطأ ما قد وقعوا فيه لعدم فهمهم اللغة العربية، وهذا لا ينطبق في الواقع إلا على القليل منهم في حين نرى أن أغلبهم يرفضون التراجع عن الطروحات التي أعلنوها تجاه الإسلام ورسوله وقد تكون فيها إساءة كبيرة للإسلام ورسوله، إلا أنهم بحجة البحث العلمي يصرون عليها.



اهتمام أتباع الحركة الاستشراقية بتراث الأمة

وكان لاهتمام المستشرقين بالتراث العربي والإسلامي، أن مكنهم ذلك من التعرف على كل مرافق الحياة الخاصة والعامة للامة الإسلامية فهم منذ بداية توجهاتهم لدراسة الإسلام عقيدةً ومنهجاً أن اهتموا بالمصنفات التي أنتجها علماء الأمة من المسلمين، وكانت هذه المصنفات عبارة عن مخطوطات خطت باليد لأنه لم تكن آنذاك مطابع ولا آلات طباعية، كما هو حاصل اليوم، فكانت مؤلفات علماء الأمة تخط بخط اليد. ثم يتم بعد ذلك استنساخ هذه المؤلفات إلى نسخ عديدة ثم تنتقل في الامصار الإسلامية ولمسافات بعيدة جداً. ولقد تفنن النساخون في كتابتها وتزيينها بالألوان والحواشي، كما تفنن المجلدون، وأصبح الأمراء والملوك والمثقفون يهتمون بجمع هذه المخطوطات، فأصبحت منها مكتبات عامرة للخاصة من الناس ولعامتهم كما حرص العلماء المسلمون وطلاب العلم على اقتناء كل مخطوط يظهر في مكتبات.

إن هذا العدد الكبير من هذه المخطوطات والتي انتشرت في ربوع العالم الإسلامي، والتي عُدت تراثاً للأمة اصبحت تحت يد المستشرقين في غفلة من المسلمين عندما عمدت حكومات هؤلاء على جمعها ونقلها إلى بلادهم وبأي وسيلة ثم العمل على دراستها وتحقيقها حتى عُد اقتناؤها شيئاً عظيماً. لقد جاء اعتناء المستشرقين بالمصنفات، والتي حملت بين ثناياها تراثاً غنياً للأمة العربية والإسلامية وفي شتى مناحي العلوم الشرعية والإنسانية. وبلغ من اهتمام حكام أوروبا بهذه المخطوطات أن كانوا يفرضون على كل سفينة تجارية تتعامل مع الشرق ان تجلب معها بعضاً من هذه المخطوطات، وقد ساعد وصول هذا الكم الهائل

من هذه المخطوطات إلى أوروبا أن ساعدت طلاب العلم فيها على تسهيل مهمة دراسة العلوم الإسلامية المتعددة الفروع والاصناف واعدت جيلاً متمكناً من المتخصصين في العلوم الإسلامية حتى فاق العلماء العرب والمسلمين من المعاصرين لهم.

تعد الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م هي مفتاح النفوذ الغربي للتدخل في البلاد العربية والإسلامية حيث نقل الفرنسيون الآلاف من هذه المخطوطات إلى عموم أوروبا وبعثها إلى مؤسسات علمية واكاديمية لغرض دراستها وابرز مثال على اهتمام الأوروبيين بالمخطوطات العربية والعمل على شرائها بأي ثمن ما قام به (فريدريش فيلهام الرابع) ملك بروسيا و(ريتشارد ليبيوس) و(هزبيش بترمان) عامي (1842_1852) بإرسال الوفود الرسمية وغير الرسمية إلى مصر وغيرها من البلاد العربية والإسلامية من أجل اقتناء ما يمكن من المخطوطات العربية والإسلامية. وكانت هذه الاساليب لا تخلو من استخدام وسائل غير شرعية إذا كانت المخطوطات ذات قيمة علمية كبيرة.

على العموم لقد لقيت المخطوطات العربية والإسلامية على اختلاف تصانيفها وفي عموم أوروبا اهتماماً ورعاية بالغتين. فلقد تم التعامل معها على أساس انها كنوز يجب الحفاظ عليها، فعملوا على حفظها وصيانتها من التلف فجلدوها بأحدث الطرق الفنية آنذاك ثم فهرستها فهرسة علمية اكاديمية منهجية. ثم شكلوا لجاناً علمية تعمل على وصفها وصفاً علمياً دقيقاً وتشير إلى المواد العلمية التي حرص المؤلف على تقديمها للناس ثم تثبيت اسم المؤلف وسنة ولادته ووفاته وتاريخ كتابته لهذه المخطوطة وهكذا حميت هذه المخطوطات من الضياع والتلف، الذي كان حاصلاً لها عند أهلها الذين لم يقدروا آنذاك قيمتها العلمية بحيث عمد بعض الجهلة إلى إتلافها أو بيعها بأرخص الاثمان في حين قدر عَزَّوَجَلَّ لهذا التراث أن يُحمى من الضياع فوقع بأيدي هؤلاء المستشرقين الذين عملوا على حفظه ورعايته.

ومن عظيم اهتمام المستشرقين بهذه المخطوطات والحفاظ عليها من التلف أو

الفقدان، أن قام (الوارد) بوضع فهرس عام لها في مكتبة برلين في عشرة أجزاء بلغ فيه الغاية فناً وابداعاً ودقة وشمولاً، وقد صدر هذا الفهرس في نهاية القرن الماضي وأصبح مرجعاً للعلماء والباحثين والدارسين للعلوم الإسلامية واشتمل هذا الفهرس على عشرة آلاف مخطوطة، ولقد نهج المستشرقون في عموم أوروبا نهج هذا الباحث وعملوا على فهرسة المخطوطات المحفوظة عندهم. وتقدر المخطوطات المحفوظة في مكتبات أوروبا بعشرات الآلاف وبل قد تصل إلى مئات الآلاف منها[1].

ثم إن هؤلاء العلماء والباحثين من المستشرقين لم يكن هدفهم هو جمع وحفظ وصيانة هذه المصنفات العلمية من الضياع بقدر ما كانوا يهدفون إلى دراستها دراسة علمية والاطلاع عليها. فمن خلال تلك الدراسات كونوا فكرة عميقة عن واقع العالم العربي والإسلامي قديماً وحديثاً والتعرف على كل معطياته الحضارية. نعم انهم لم ينصفوا هذه الحضارة العريقة بل حاولوا جهد امكاناتهم النيل منها وتسليط الأضواء على السلبي منها فبرزوا الصراعات السياسية وحالات الاحتراب داخل الأمة وركزوا على اظهار الخلافات المذهبية وغيرها من المسائل السلبية والتي لا تخلو منها أي امة من الأمم البشرية.

نعم انهم كانوا يدركون تمام الادراك أن هذه الحضارة كانت ذات جذور عميقة بعمق الارض، وتبين لهم ذلك من خلال المعطيات التي وجدوها داخل هذه المخطوطات، وادركوا بأن هذه الأمة أمة جديرة وأنها لعبت دوراً إيجابياً في العطاء الإنساني والعلمي وعلى مختلف الأصعدة.

ولهذا نجد أن بعضاً منهم وهم قلة قليلة أنصفوا هذه الأمة واعترفوا بدورها الحضاري، بل إن بعضاً منهم دخل الإسلام واعتنقه ودافع عنه وكان أبرزهم المستشرق (دينيه).

وهناك دراسات مهمة قام بها عدد من المستشرقين في مجالات عديدة منها على سبيل

---

(1) ينظر د. مصعب السباعي، الاستشراق والمستشرقون ط (كويت د/ ت) 3/ 350 – 352.

المثال ما قامت به الباحثة المستشرقة الروسية كراتشكوفسكي في إعداد بحث علمي عن نوادر مخطوطات القرآن الكريم في القرن السادس عشر قال عنه امين الخولي عندما كان حاضراً للمؤتمر الخامس والعشرين للمستشرقين الدولي (واني اشك من ان الكثيرين من أئمة المسلمين يعرفون شيئاً عن هذه المخطوطات واظن ان هذه مسألة لا يمكن التساهل في تقديرها)[1].

ومن الجدير بالذكر حول مسألة رعاية المخطوطات العربية والإسلامية من هؤلاء المستشرقين نقول، لو بقيت هذه المخطوطات على حالها في البلاد العربية والإسلامية لكان مصيرها وبلا ادنى شك اما التلف أو إلى الحرق لعمل خبز التنور أو الضياع والتلف ولو حاولت الجامعات العربية والإسلامية منذ تأسيسها توجيه طلبة العلم من أصحاب درجتي الماجستير والدكتوراة إلى تحقيق هذه المخطوطات، لكان لهم الفضل في حماية تراثهم والاعتزاز به بدلاً من أن يتباهى هؤلاء المستشرقون بأنهم أصحاب الفضل الأول والاخير في حماية تراث الأمة الإسلامية من الضياع من أهل هذا التراث وهم في غفلة عنه. ان هذا العطاء العظيم لهذه الأمة قد اذهل المستشرقين ودفعهم إلى الاعتناء به ودراسته والحفاظ عليه في حين ان معظم المثقفين العرب والمسلمين لايعملون عن هذا التراث سوى الاسم وقد لايعتزون به لانهم تثقفوا بالغرب وغرتهم المدينة الغربية فتنكروا لتراثهم العريق والذي عدوه خطأ نسبياً في تخلفهم عن ركب الحضارة العالمية فالقصور في الذين لم يتمكنوا من فهم تراثهم والتمسك به فأصبحوا كالريشة في مهب الريح.

وعلى الرغم من أن نوايا المستشرقين في الحفاظ على المصنفات الإسلامية والعربية لم تكن خالصة ولم تكن سليمة، إلا أنهم وجدوا انفسهم بعد جمع هذه المخطوطات وتصنيفها ودراستها أنهم أمام تراث علمي وثقافي عظيم لأمة لم تكن معروفة عندهم. فهم من خلال

---

(1) ينظر السباعي، الاستشراق، 3/ 353. ينظر نوري، المستشرقون، عدة أماكن.

تلك المصنفات العلمية تمكنوا من بسط سلطاتهم ونفوذهم عليها والسيطرة على مقدراتها.

تحاول بعض الجامعات العربية العمل على تشكيل لجان علمية لتحقيق المتبقي من المخطوطات والتي لم تمسها يد المستشرقين، فكان لها الفضل في تحقيق العديد منها والحفاظ عليها إلا أن المخطوطات ذات القيمة العلمية والنادرة هي اليوم في مكتبات أوروبا ولايمكن الوصول اليها. نأمل من الجامعات العربية والإسلامية أن تعي مهمة الحفاظ على الكنوز المتبقية من المخطوطات وتعمل على تحقيقها ونشرها فتكون بذلك قد حققت جزءاً من حلم الأمة في أن يكون لها الفضل في حماية المتبقي من تراث الأمة، وتوجيه طلبة العلم لدراستها والاستفادة منها. كما فعل المستشرق بدرس التراث من أجل العمل على إظهار عيوبه وطالب العلم المسلم يدرس التراث من أجل العمل على كشف كنوزه والسير على خطاه وإنارة الطريق لأجيال الأمة وتبصيرها بعظيم تراثها وعلومها وآدابها وفنونها وعقيدتها ثم إن هذا الجهد سيمكن من الحفاظ على هذه المخطوطات بإعادة طباعتها وفهرستها وصيانتها من التلف والضياع، وعلى الرغم من ما حُقق في الجامعات العلمية كانت قليلاً قياساً بما فعله المستشرقون إلا أنها بداية طيبة تنم عن روح المسؤولية بتقدير هذا الكنز الهائل الذي لو ترك من دون عناية علمية لضاع.

فإذن جمهور المستشرقين لم تقتصر على مجرد الحفظ والصيانة والفهرسة بل انبروا جاهدين على نشر جزءٍ كبيرٍ من هذه المخطوطات ولاسيما عندما تمكنوا من جمع النسخ المتقابلة من المخطوط الواحد، حيث مكنهم ذلك من العمل على التحقيق ثم النشر. فكان لجهودهم تلك أعظم الأثر في الوصول إلى الحقيقة العلمية فهم من خلال تلك العملية العلمية المنهجية تمكنوا من تحديد صحة المخطوطة ونسبتها إلى مؤلفها الحقيقي. ثم انهم دوّنوا الفروق الموجودة في كل نسخة من المخطوطة وأثبتوا ذلك في أواخر المطبوع المحقق. بل لشدة معرفتهم باللغة العربية وعلومها وفنونها وآدابها قاموا بشرح بعض الكتب

شرحاً وافياً[1].

إن ما قام به المستشرقون من تحقيق ونشر العديد من المخطوطات العربية والإسلامية بطريقة علمية منهجية، إن مكن الباحثين والدارسين منهم ومن الجيل اللاحق أو حتى من الباحثين والدارسين من العرب والمسلمين من التعرف بدقة على الكثير من النتاج العلمي لعلماء الأمة الإسلامية الأفذاذ الذين كتبوا في كل الاختصاصات وفي كل علوم المعرفة لأن العلوم الإسلامية ليس فيها حد فالذي يشتغل منهم في الطب يشتغل في العلوم الشرعية والذي يشتغل في العلوم الشرعية يشتغل في الفيزياء والرياضة والكيمياء فالعلوم الإسلامية وحدة واحدة كلها تنبع من الفكر الإسلامي فليس هناك علوم بحتة علمية صرفة واخرى شرعية فكل العلوم من الإسلام وحدة متكاملة ولهذا عمل المستشرقون على فصل العلوم الإسلامية عن العلوم البحتة فكان هذا شرخاً كبيراً في جدار الفكر الإسلامي فالجامعات الإسلامية مثل الجامعة المستنصرية يدرس فيها الطالب الطب والهندسة والصيدلة جنباً إلى جنب مع العلوم الشرعية واللغة العربية فهو عالم موسوعي ولهذا نجد ان اغلب علماء المسلمين كتبوا في جميع الاختصاصات.

وهنا لا بد من أن نقدم الثناء على المستشرقين من الذين حموا تراث أمتنا من الضياع فكان لهم الفضل في وجوده بين أيدينا الآن وإذا أردنا أن نحصر المؤلفات التي حققوها لتطلب ذلك منا مجلدات وأشهر من العمل، غير أننا هنا سنحاول عرض قسماً من هذه المؤلفات المحققة وعلى سبيل المثال لا الحصر:

1. السيرة النبوية لابن هشام.
2. الاتقان للسيوطي.

---

(1) ينظر المهندس زكريا، المستشرقون والإسلام، ط(لجنة التعريف بالاسلام) 1965، 015.

3. المغازي للواقدي.

4. الكشاف للزمخشري.

5. تاريخ الرسل والملوك للطبري.

6. كتاب سيبويه.

7. الاشتقاق لابن دريد.

8. الانساب للسمعاني.

9. فتوح مصر والمغرب والأندلس لابن عبد الحكم.

10. وتجارب الأمم لمسكويه.

11. واللمع لابي نصر السراج.

12. والبديع لابن المعتز.

13. وحي بن يقظان لابن طفيل.

14. والمختصر في حساب الحيز والمقابلة للخوارزمي.

15. والملل والنحل للشهرستاني.

16. وعمدة عقيدة أهل السنة والجماعة للحافظ النسفي.

17. فتوح الشام للأزدي.

18. فتوح الشام للواقدي.

19. الكامل للمبرد.

20. والجمهرة لابن دريد.

21. اخبار النحويين البصريين لابن السيرافي.

22. كتاب المناظر لابن الهيثم.

23. الإصابة في تميز الصحابة لابن حجر العسقلاني.

24. الفهرست لابن النديم.

25. كشف الظنون لحاجي خليفة.

26. التعريفات للجرجاني.

27. طبقات الحفاظ للذهبي.

28. وفيات الاعيان لابن خلكان.

29. تهذيب الاسماء للنووي.

30. صحيح البخاري والمقتضب لابن جني.

31. الوافي بالوفيات للصفدي.

32. التيسير في القراءات السبع لابي عمرو عثمان الداني.

33. الرد الجميل على مدعي الوهية السيد المسيح بصريح الانجيل للغزالي.

34. عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة.

35. الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني.

36. والأوائل للسيوطي.

37. الطبقات لابن سعد.

38. عيون الاخبار لابن قتيبة.

39. الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان.

فضلاً من إعداد كبيرة من هذه المخطوطات المحققة والتي كان لهؤلاء المستشرقين الفضل الأول في الحفاظ عليها حتى الآن. كما أن هؤلاء العلماء الغربيين عكفوا على دراسة هذه المؤلفات وعملوا على شرحها ودراستها وقدموا عنها الدراسات والمقالات في موسوعة كبيرة اطلقوا عليها (دائرة المعارف الإسلامية) والتي تقع في عدد كبير من الاجزاء وهي موجودة في العديد من المكتبات العلمية في جميع الدول العربية والإسلامية وقد تم ترجمة البحوث إلى اللغة العربية من قبل هيئة علمية ومرتبة البحوث فيها حسب الحروف الهجائية.

كما عكف هؤلاء المستشرقون على ترجمة العديد من هذه المخطوطات المحققة إلى لغاتهم منها الانكليزية والالمانية والايطالية والفرنسية... الخ فقد نقلوا إلى لغاتهم مئات من هذه المؤلفات التي تحكي عن تراث الأمة الإسلامية في مختلف دوائر المعرفة فهم ترجموا دواوين الشعر العربية والمعلقات وتاريخ ابي الفداء وتاريخ الطبري ومروج الذهب للمسعودي وتاريخ المماليك للمقريزي وتاريخ الخلفاء للسيوطي والاحياء والمنقذ للغزالي فضلاً عن عددٍ من هذه المؤلفات العربية والإسلامية ثم نقلوا كتب الأدب والتاريخ واللغة والعلوم الإسلامية البحتة فضلاً عما تم ترجمته سابقاً من مؤلفات علماء العرب والمسلمين في الفلسفة والطب والفلك والجبر والرياضة[1].

وكان لشدة اهتمام المستشرقين بالإسلام وعقيدته ورسوله والوصول إلى اعماقه

(1) ينظر زقزوق، الاستشراق، 64 – 68.

والتعرف على اصوله، عمدوا وبشكل غير مسبوق وفيه إساءة إلى ترجمة القرآن الكريم. فقد تمت ترجمة القرآن الكريم لأول مرة في القرن الثاني عشرالميلادي ومن ثم عكف الجيل اللاحق منهم إلى ترجمة القرآن الكريم فلقد ظهرت العديد من الترجمات وإلى مختلف اللغات الأوروبية[1].

ومما لا شك فيه أن القرآن الكريم لا يترجم إلى أي لغة يبقى بلغته التي نزل بها وهي اللغة العربية ومن يريد أن يتعرف عليه ودراسته عليه أن يتقن اللغة العربية لأن خاصية الإعجاز للقرآن تكمن في بقائه على لغته التي أنزله الله بها[2].



(1) ينظر زقزوق، المكان نفسه.

(2) ينظر زقزوق، المكان نفسه.

موقف الحركة الاستشراقية من التراث الإسلامي

لقد مر بنا سابقاً أن أتباع الحركة الاستشراقية من المستشرقين بالغوا في الاهتمام بتراث الأمة الإسلامية وعنوا به عناية فائقة واصبح عند العديد منهم خبرة عظيمة بتراث الأمة من خلال تلك المخطوطات التي نقلت اليهم على مر الأيام والسنين فقاموا بعد ذلك بالتأليف في مفاصل عديدة من هذا التراث إلا أن هذه الكتابات كانت من وجهة نظرهم لا تخلو من الغبن والاجحاف بحق امة الإسلام من العرب وغيرهم فكان لهذه المؤلفات التي ذكروا عنها انها مؤلفات علمية منهجية تخلو من الظلم إلا أنها في حقيقة امرها كان لها الدور الفعال في التأثير على ثقافة شباب الأمة وانحرافها عن طريقها السليم فهي علمية مدروسة كان الهدف من هذه المؤلفات هو خلق هوّة كبيرة ما بين الأجيال السالفة للأمة والتي انتجت هذا التراث وما بين الجيل الصاعد من خلال تقديم الصور الشائنة والاحتراب السياسي والاختلاف الفكري والمذهبي وحالة التردي التي حصلت للأمة أن جعلت شباب الأمة ينفر وبشكل كبير من تراثه وحتى يرفضه ويمقته ويتنكر له ويزدري منه إذا ما ذكر أمامه لقد بلغ ما ألفه المستشرقون في الدراسات الإسلامية منذ قرن ونصف أي منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين ما يزيد على(60.000)[1] مطبوع معظمها تسير لتحقيق نفس الأهداف وهي إفساد عقول شباب الأمة وإشعارهم بأن تراثهم لا يمكن الاعتزاز به ومع

(1) ينظر زقزوق، المكان نفسه.

الأسف الشديد صدق معظم شباب الأمة هذه الفرية بحق تراثهم المجيد.

ولم يخلو أي مجال من مجالات الثقافة العربية والإسلامية إلا ونجدهم كتبوا فيه وألفوا فيه العديد من الكتب ونقلت إلى العربية وطبعت ووزعت فهم كتبوا في السيرة النبوية وألفو في علم الكلام والشريعة وفي الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامي وفي تاريخ آداب اللغة العربية وفي الدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم[1] فهم أحاطوا بالتراث من كل جانب ولم يتركوا منه شيئاً وكانت جميع هذه المؤلفات والتي رعتها الحركة الاستشراقية موجهة بخط واحد هو الإساءة إلى الإسلام ورسوله والمسلمين عرباً وغير عرب، إلا ما قل منهم كان منصفاً بحق الإسلام والمسلمين وعدوا هؤلاء المستشرقين المنصفين بأنهم شواذ وأصبحوا عند زعماء الحركة الاستشراقية منبوذين.

على العموم كانت مؤلفات معظم المستشرقين ما بين مجحف بحق الأمة وهي كثيرة وكثيرة جداً وهي لا تخلو ابداً من مغالطات وكذب وبعد عن المنهج العلمي الأكاديمي الذي قرروا نهجه في معالجة تراث الأمة. ومثال على ذلك ما كتبه كارل بروكلمان في كتابه (تاريخ الأدب العربي) و(تاريخ الشعوب الإسلامية) وما قدمه في دائرة المعارف الإسلامية والتي سبق أن أشرنا إليها وبين مؤلفات علمية محققة ذات فائدة علمية أسهمت في رفد المكتبة العربية والإسلامية مثل كتاب المغازي للواقدي الذي حققه المستشرق مارسدن جونسن ويقع في ثلاثة أجزاء[2].



(1) ينظر زقزوق، المكان نفسه.

(2) ينظر كتاب المغازي للواقدي للمحقق مارسدن جونسن.

الحركة الاستشراقية والجمعيات

دأبت الحركة الاستشراقية منذ نشوئها إلى تشكيل جمعيات تقوم هي على رعايتها وتمويلها بما تحتاجه من مال ومتخصصين، وكان الهدف من هذه الجمعيات خدمة الاستعمار الغربي وتحقيق أهدافه ومن أهم هذه الجمعيات:

1 - الجمعية الآسيوية الفرنسية:

تأسست هذه الجمعية في باريس عام 1822م وصدر لها الكتاب المئوي سنة 1922م ومن أهم أهدافها:

1. تأليف ونشر الكتب النحوية واللغوية والقواميس وغيرها من الكتب التي تعرف بأنها نافعة أو ضرورية لخدمة اللغات الشرقية.
2. الحصول على المخطوطات وترجمتها أو أخذ مختارات واقتباسات منها والاكثار من عددها بواسطة التصوير والطبع والنشر، وكذلك نشر بما يماثلها في أوروبا.
3. تمكين مؤلفي الكتب النافعة في الجغرافية والتأريخ والفنون والعلوم من أن يحصلوا على الوسائل (المساعدات) التي تمكن الجمهور من أن يستمتع بثمرات جهودهم.
4. جمع تبرعات دورية من الجمهور تخصص للأدب الآسيوي وللآثار العلمية والادبية والشعرية للشرق، وما يماثلها في أوروبا.

5. جمع الحقائق(المعلومات)عن الشرق وهي التي يمكن ان تكون لها أهمية في أوروبا وجعلها مجالاً للتخصص العلمي(للدراسة العلمية)[1].

2 - الجمعية الآسيوية (البريطانية):

تأسست هذه الجمعية في لندن عام 1823م وصدر لها الكتاب المئوي سنة 1923م وأهدافها شبيهة بأهداف الجمعية الآسيوية الفرنسية، وتضم الجمعية لجنة للمراسلة ***committee of correspondence***.

ومهمة هذه اللجنة جمع المعلومات والتحقيقات والبحوث المتعلقة بالفنون والآداب والتأريخ والآثار القديمة الخاصة بالشرق وضمن هذه المهمة استقبلت (بترحاب) المادة الغزيرة من المعلومات التي احتواها كتاب المستشرق البريطاني ادوارد لين وصف سلوك المصريين المحدثين وعاداتهم ***An account of the manners and customs of the modren Egyptians***.

3 - الجمعية الشرقية الأمريكية:

انشئت هذه الجمعية سنة 1842م وفي أول اجتماع لها 1843م أعلن رئيسها ان أمريكا تريد دراسة الشرق لتحذو حذو الدول الأوروبية الاستعمارية أي ان الدافع الاساسي للدراسات الاستشراقية كان ومازال دافعاً سياسياً واستعمارياً وليس علمياً.

ومن أهداف هذه الجمعية دراسة اللغات الأفريقية والآسيوية وكل ما يتعلق بالشرق وخلق (تذوق) للدراسات الاستشراقية في أمريكا ونشر النصوص والترجمات والمعلومات وتأسيس مكتبة وخزانة للنفائش الشرقية.

---

(1) ينظر أحمد عبدالحميد غراب، الاستشراق، ط(المنتدى الإسلامي، لندن)44 - 45 - 46.

ومعظم نشاطاتها تتركز في المجالات الآسيوية، وفي اللغات السامية والشرق الاوسط[1]، وبعد تزايد المصالح الأمريكية في الشرق الاوسط (وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية) وتزايد (القلق) الامريكي من الصحوة الإسلامية تكاثرت المؤسسات والجمعيات الاستشراقية في أمريكا ومنه على سبيل المثال:

4 - معهد الشرق الاوسط:

وقد أسسته الحكومة الأمريكية في واشنطن في مايو1947م وله صبغة أو وظيفة استراتيجة وأمنية واضحة ومعلنة[2].

5 - رابطة الدراسات الشرق أوسطية:

وغيرها من الجامعات التي كان لها الدور في تفعيل الاستشراق ودعم رجاله بكل وسائل النجاح والتمكين.



(1) ينظر غراب، المكان نفسه.

(2) ينظر غراب ، المكان نفسه.

أهمية الاستشراق العلمية

فيما مضى تبين لنا أن عموم المستشرقين كتبوا وألفوا في شتى نواحي الحضارة العربية والإسلامية، فهل يا ترى كانت لمؤلفاتهم مكانة علمية وبخاصةٍ في مجال التأليف وليس التحقيق. نرى أن القيمة العلمية لما ألفه هؤلاء ليس بذي فائدة علمية وتنم العديد من هذه المؤلفات مثل تلك التي ألفها المستشرقون مثل كارل بروكلمان وجب وشاخت، عن جهل مطبق وتام وسوء تقدير للإسلام وعقيدته ولعموم الحضارة الإسلامية فلقد اعتمد الجيل الأول من المستشرقين والمبشرين على ما قدمه أسلافهم وعلى سبيل الحصر كتابان هما:

1. ميزان الحق الذي ألفه قسيس يحمل درجة الدكتواره واسمه (منذر) ويعد هذا المرجع الأول الذي يستسقي منه معظم المبشرين والمستشرقين مطاعنهم على الإسلام ورسوله.

2. كتاب (تذييل مقال في الاسلام) ألفه قسيس مجهول سمى نفسه(هاشماً العربي)وهو نسخة مطابقة لما جاء في كتاب (بميزان الحق) ثم جاء بعدهم قسيس آخر يحمل درجة الدكتوراه واسمه (فنسدل) فهو لم يحاول تصحيح ما وقع فيه أسلافه من كذب وتحريف ضد الإسلام وعقيدته ورسوله بل زاد على ضلالهم ضلالةً وزاد على مطاعنهم فساداً فهذا هو ديدن المستشرقين والمتمثل بالطعن بالإسلام ورسوله قدر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً وكان هذا الكتاب في حقيقته رداً على ما قدمه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي أقام الحجة والدلائل القطعية على فساد عقيدة النصارى واليهود بتحريفهم التوراة والانجيل

في كتابه(اظهار الحق)[1].

إن مراجعة علمية لما كتبه عموم المستشرقين وإخوانهم المبشرين عن الإسلام وعقيدته ورسوله يتضح لنا كيف ينظر الغرب إلى الإسلام وإلى العرب كفاتحين ومحررين للأمم التي رضخت تحت نير العبودية وفساد العقائد البشرية التي انتشرت بين البشر قبل الاسلام.

وعلى الرغم من ظهور أجيال جديدة من هؤلاء المستشرقين إلا أن تصوراتهم عن القرآن الكريم والإسلام ورسوله، هي نفس الصور التي رسمها وقدمها اسلافهم من قبل، والدراسات الاستشراقية الحديثة ما زادت الصورة القديمة إلا رسوخاً في عقول الغربيين وعندما يكتب واحد من هؤلاء فهو مسبقاً كان قد كون فكرة عن بطلان الإسلام كعقيدة وكدين وتكذيب النبي ﷺ كرسول لذا فهو عندما يكتب يحاول تقرير فكرته وفكرة أسلافه وليس نقضها.

وعلى الرغم من مناداة العديد من المستشرقين بأنهم طلاب علم ويبحثون عن الحقيقة وانهم يطبقون المنهج العلمي على الدراسات الإسلامية كما طبقوه على كافة علومهم. فإذا صح منهجهم على علومهم فلا يصح البته على العلوم الإسلامية لأنهم خرقوا الموضوعية المنهجية التي نادوا بها.

وخروجهم ذلك أوقعهم في العديد من المتناقضات والأخطاء العلمية ويؤيد ذلك ما ذهب إليه الكثير منهم، فهذا المستشرق الالماني (اسطان فيلذ) يقول بنفسه عن دور زملائه في الكتابة عن الإسلام ورسوله «فلنعترف أولاً ان الكثيرين من المستشرقين أخطأوا في الكثير مما كتبوه، بعضهم أخطأ لغوياً في النحو والصرف وبعضهم كسر العروض وهناك أخطأ في البلاغة والبيان وكذلك أخطأ في تفسير القرآن الكريم، وشرح الحديث النبوي الشريف كما نجد في كتاباتهم أخطاءً تاريخية... الخ. كل هذا صحيح وعلى المستشرقين

(1) ينظر زقزوق، المستشرقون والإسلام، 167 – 168.

الاعتراف بذلك قبل غيرهم والأقبح من ذلك توجد جماعة يسمون انفسهم مستشرقين سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتأريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين وهذا واقع مؤلم لا بد ان يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة»[1].

وهذا مستشرق آخر يؤكد ما ذهبنا إليه فهو يقول: «إذا حدث أن كان بعض آراء العلماء الغربيين غير معقولة عند المسلمين، فذلك لأن العلماء الغربيين لم يكونوا مخلصين دائماً لمبادئهم وأن آراءهم يجب اعادة النظر فيها، ومن وجهة النظر التأريخية الدقيقة»[2].

وهذا مستشرق ثالث يحدثنا عن زملائه مدللاً على فساد آرائهم ومعتقداتهم التي كونوها ضد الإسلام وهو موريس بوكاي فيقول: «فالأحكام غير الصحيحة المؤسسة على مفاهيم مغلوطة والتي صدرت ضد الإسلام هي من الكثرة بحيث يصعب جداً على المرء أن يكوّن فكرة سليمة عما عليه الإسلام في الواقع ويضيف كذلك فيقول: «إن الاحكام المغلوطة تماماً التي صدرت في الغرب عن الإسلام ناتجة عن الجهل حيناً وعن التسفيه حيناً آخر»[3].

إذن على الرغم من ادعاء المستشرقين انهم طبقوا المنهج العلمي الموضوعي على الدراسات الإسلامية إلا أن حقيقة الأمر اثبتت عكس ذلك فهم مارسوا الطعن والتضليل والكذب مجافاة للحقيقة المنهجية مما ادى إلى وقوعهم باخطاء علمية ومنهجية عديدة وفي هذه المسألة يقول الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل: «يكاد يكون الملمح الاساسي في مناهج المستشرقين قاسماً مشتركاً أعظم بينهم جميعاً»[4].

ومن هنا نرى بأن بحوث ودراسات ومؤلفات المستشرقين كانت مفعمة بالاباطيل

---

(1) ينظر زقزوق، الإسلام في فكر العرب، 60.

(2) ينظر مونتجمري وات، محمد في مكة، تعريب شعبان بركات، ط، 60.

(3) ينظر موريس بوكاي، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المقارنة المدنية، ط (بيروت:د/ ت) 135.

(4) ينظر مناهج المستشرقون في الدراسات العربية والإسلامية 1/ 130 - 132.

والمفتريات على الإسلام ورسوله فهم يحملون البحث العلمي وزر اهوائهم وحقدهم، تقول الدكتورة عائشة بنت الشاطئ عنهم (لكن البأس كل البأس أن يحمل البحث العلمي وزر هذه الاهواء فتخرج بحوثهم مشحونة بأباطيل يزعمون أنها مما هدى إليه استقراؤهم لتراثنا ويفرضون لها حرمة علمية حين يسوقون ادلة وشواهد من نصوص في التراث انحرف بها الهوى والتعصب فضلوا (ضلالاً بعيداً)[1]. وتضيف كذلك: «وما من ريب في أن شاخت وامثاله ينحرفون عن قصد وعمد استجابة لتعصبهم ويخضعون في دراساتهم للهوى»[2].

في حين ذهب الدكتور محمد حسين هيكل في معرض حديثه عن دور المستشرقين في الدراسات الإسلامية إلى القول (إن عدم دقة هؤلاء وعدم إنصافهم في هذه الدراسات إنما يعود لسببين اثنين:

1. عدم تمكنهم من الاحاطة بأسرار اللغة العربية.

2. تأثرهم بالنصرانية الأوروبية تأثراً جعلهم ينظرون إلى الأديان الأخرى نظرة مفعمة بالريب والشك)[3].

مما سبق عرضه آنفاً لاحظنا أن هناك شبه توافق ما بين بعضٍ من المستشرقين المنصفين الذين اثبتوا اخطاء العديد من زملائهم وكذلك أثبت العديد من المفكرين العرب والمسلمين من أن الدراسات الإسلامية التي قام بها السواد الاعظم من المستشرقين فيها تحريف وزيف ومغالطات فهل يا ترى بالإمكان تحديد الأسباب التي دعت إلى وقوع هؤلاء المستشرقين في هذه المطبات العلمية والمنهجية وحتى الاخلاقية لأن بعضاً منهم وصل به الحقد وفقدان التوازن العلمي إلى استخدام أسلوب السب والشتم والقذف بحق الإسلام

---

(1) ينظر تراثنا بين ماضي وحاضر، 56 – 57.

(2) ينظر المكان نفسه.

(3) ينظر حياة محمد ﷺ، ط (القاهرة: 1956) 60.

والمسلمين ورسولهم، نقول نعم بالإمكان تحديد ذلك على ضوء دراساتنا لمؤلفاتهم وأبحاثهم ودراساتهم التي تناولوا بها الإسلام ورسوله.

1. تحريف النصوص الإسلامية تحريفاً مقصوداً كما فعل (جولدزيهر) في زعمه أن أحاديث قراءات القرآن على سبعة احرف هي قراءات عمر بن الخطاب ﷺ وكذلك ما قاله (شاخت) بأنه لا وجود للفقه الإسلامي[1].
2. اعتمادهم أقوالاً مرفوضة ردها علماء المسلمين بدلائل علمية حاسمة وتجاهلهم تلك الدلائل، وعدم تبيان وجهة النظر الإسلامية في المسائل المطروحة للبحث.
3. وضع النصوص في غير مواضعها وتحميلها ما لا تتحمله ألفاظها ولا تدل على معانيها خدمةً لاغراضهم في الطعن والتحريف.
4. اقتطاع فقرة من نص علمي للاستدلال به على غرض خبيث ينقضه النص نفسه إذا ما ذكر كاملاً.
5. إغفال الحقائق التي تخالف استنتاجاتهم على الرغم من الاطلاع عليها فهم يكونون فكرة مسبقة ويحاولون إيجاد الأدلة عليها حتى وإن كانت هذه الأدلة باطلة.
6. المغالطة وسوء الظن والتزييف والتحريف بكل ما يتصل بالإسلام ورسوله وعقيدته.
7. العمل وبكل قوة على تحريف دلالات الوقائع التأريخية والانحراف في تعليلها وإن كانوا متأكدين من أن هذه الوقائع سليمة صحيحة.
8. انتخاب الروايات السقيمة والضعيفة والاستدلال بها مع علمهم بعدم دقتها وسلامتها.
9. ايراد مقدمات جزئية ضعيفة ثم استخلاص نتائج لا تتناسب مع تلك المقدمات ولا تتفق معها.

---

(1) ينظر مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة د. عبد الحليم النجار، ط 3 (1985) 49.

10. الاعتماد على كتب لا ترتقي إلى مستوى البحث العلمي فهم مصادرهم لتثبيت آرائهم فمثلاً نجدهم يعتمدون على كتب الأدب فيما يخص علم الحديث أو على مصادر معروفة أصحابها بالكذب والتدليس فيصححون ما ينقله الدميري في كتابه الحيوان ويكذبون ما جاء في الكتب الموثوقة عند عامة المسلمين مثل الصحيحين والموطأ... الخ.

11. كان منهجهم وما يزال هو الإساءة إلى علماء المسلمين والطعن فيهم والنيل منهم بأبشع الوسائل القذرة وعلى وجه الخصوص الصحابة والعلماء البارزين الثقاة وكذلك فعلوا مع القادة والامراء والحكام والقضاة.

12. العمل على إسقاط معاناتهم السياسية والدينية والاجتماعية على الأمة الإسلامية فهم يصورون المجتمع الإسلامي وعلى مختلف عصوره ومنذ لحظة انبثاق الدعوة الإسلامية على أنه مجتمع تسوده الأنانية والصراع على السلطة والاحتراب الداخلي فهذا أسلوب من شأنه ان يلحق أبلغ الضرر بقادة الأمة وعظمائها وقد ينطلي هذا الأسلوب القائم على الكذب والافتراء على العديد من جهلة الأمة في العصر الحديث والمعاصر[1].

13. العمل على إظهار الحركات المناوئة للدولة وسلطتها المركزية سواء الأموية أو العباسية أو العثمانية فيما بعد مثل حركات الزنج والقرامطة وثورة أبي مسلم الخراساني على أنها حركات ثورية ثارت ضد السلطة المركزية من أجل تحقيق العدل والمساواة وعلى أنها حركات قومية وطنية تحريرية كانت تعمل من أجل العودة إلى تراثها القديم والمغاير لعقيدة التوحيد التي دعا اليها الإسلام ورسوله[2].

---

(1) ينظر تراث الإسلام، ترجمة محمد زهير السمهوري ط (كويت: 1987) 201-202.

(2) ينظرالسباعي، السنة ومكانتها، 297، أنور الجندي الإسلام في وجه التغريب، 273، د.محمد علي جريشة. أساليب الغزو الفكري، 24.

ومن هنا لا بد أن نطرح السؤال الآتي: لما كان هؤلاء المستشرقون مفكرين وعلماء يحملون درجات علمية عالية ولديهم ثقافات عظيمة وهم اساتذة جامعات مرموقة ويعرفون عدة لغات فلماذا انحرفوا عن المنهج العلمي الذي نادوا به، عندما عملوا على دراسة الإسلام عقيدة ومنهجاً ؟!

مما لا شك فيه أن عموم الدراسات الاستشراقية والتي رعتها الحركة الاستشراقية العالمية انحرفت عن مسارها العلمي الذي ادعته ويمكن ارجاع ذلك إلى عامل مهم يكاد يكون القاسم المشترك عندهم جمعياً الا وهو التعصب الديني الاعمى الذي حال بينهم وبين الحقيقة والذي انبثق من الكنيسة التي ثبتت معاداة الإسلام ورسوله وبكل الأشكال والأساليب فلقد رأت الكنيسة أن مبادئ الإسلام إذا ما قدر لها أن تنتشر في أوروبا فإنها وبلا شك ستهدد مكانة الكنيسة ورجال الدين فيها وعندها سيفقدون جميع امتيازاتهم التي حظوا بها عند عموم النصارى في عموم أوروبا كما أن خوف الكنيسة من الإسلام جاء بعد أن دحر الإسلام جميع المعتقدات السابقة له كالشرك والوثنية والمجوسية الثنوية والصائبة وعبادة الاجرام السماوية وغيرها من المعتقدات الفاسدة فقد كان إذن للكنيسة مبرراتها العقيدية لمحاربة الإسلام والوقوف ضده مهما كلف الأمر.

كما أن حكام كل الدول الأوروبية وجدوا أن في الإسلام قوة عظيمة جداً قد تسحق عروشهم جميعها وتقضي على مكانتهم السياسية الزائفة عند شعوبهم فهم بذلك ورثوا عداوة الإسلام من الكنيسة فكان هناك عداء ديني تمثله الكنيسة وعداء سياسي يمثله حكام أوروبا.

فضلاً عن ذلك سوء أحوال وأوضاع المسلمين في القرون الأخيرة والتي شملت فساد الحكومات وانتشار الفقر والجهل والمرض بين عموم المسلمين وانتشار الخرافة والشعوذة في اوساط المسلمين فضلاً عن هذا وذاك عدم ادراك المسلمين لحقيقة الإسلام وانه الدين الذي ارتضاه الله عَزَّوَجَلَّ ديناً للبشر، وأنه الدين الذي يصلح كل احوالهم السياسية

والاجتماعية والاقتصادية والثقافية إذا ما طبق وفق المنهج الرباني وعلى الهدي النبوي الصحيح. إن أوضاع العرب والمسلمين في هذه الفترة جعلت حكام أوربا يطمعون في بلادهم ويستحوذون على خيراتهم.

كما أن المسلمون عامة والعرب خاصة لم يحاولوا مجاراة الغرب في الاستفادة من حالات التقدم والتطور العلمي والمعرفي الذي حصلوا عليه لا سيما في القرنين الأخيرين (18 – 19) بل شاع بينهم الوهن والكسل والاتكال، والاعتماد على الغرب في سد حاجاتهم الصناعية كما أسهم المنهزمون من المثقفين العرب والمسلمين في إشاعة هذه الروح والترويج لحضارة الغرب وتقدمه وتفوقه على العرب والمسلمين بل وصل الحد ببعض هؤلاء المنهزمين فكرياً وعقيدياً إلى الدعوة بأن الغرب هو أصل كل الحضارات[1].

وأن الرجل الأبيض صانع المعجزات والقادر على تحقيق كل شيء.

وكذلك كان للتطور الحاصل في أوروبا في القرنين (18 – 19) وانتشار التقدم العلمي العالمي والمادي وظهور الصناعة في مراحلها الأولى أدخل في نفوس علمائهم ومفكريهم ومؤرخيهم وكتابهم قدراً كبيراً من الغرور والشعور بتفوق الرجل الأبيض على سواه من البشر بل اعتقدوا أن الغربيين هم اصل الجميع الحضارات مما أدى ذلك إلى أن ينظر الغرب ومفكريهم على أن الشرقيين عرباً وغير عرب هم أقل درجة منهم وأنهم لا يقدرون على رعاية انفسهم فمن واجب الرجل الأبيض الأوروبي أن يتولى رعاية هؤلاء واستعمارهم والسيطرة على خيراتهم.

ومن العوامل التي أدت بالمفكرين الأوروبيين إلى الانحراف عن الحقيقة هي تقديس العقل واعتماد سياق الاحتمالات العقلية مساق الحقائق المسلمة. كما أن غلبة الفلسفة

---

(1) ينظر السباعي، الاستشراق والمستشرقون، 64 – 65.

العقلية جعلت من دعاة عصر التنوير يحملون حملة شعواء على كل الأديان السماوية فكانوا لا يرون في أصحاب الأديان السماوية إلا أصحاب جهل وشعوذة ومن أبرز هؤلاء الدعاة (فولتير) الذي أراد أن يروج لهذا التفكير اللاديني[1].

فضلاً عما تقدم عرضه نجد أن المستشرقين في عامتهم كانوا يجهلون اللغة العربية وآدابها وفنونها كما أن جهلهم بحقائق التراث الإسلامي الذي تمثل اللغة العربية جزءاً مهماً منه وعدم اطلاعهم عليه في مصادره الأصلية جعلهم يرتكبون اخطاء فادحة بحق هذا التراث ويخرجوا تبعاً لذلك بدراسات عقيمة ومعوجة[2].

وقد عبر الأستاذ عرفان عبد الحميد عن منهج هؤلاء المستشرقين وأساليبهم في التعامل مع التراث العربي والإسلامي فيقول: «لقد حصر المستشرقون عامة كامل جهودهم من أجل البحث عن الأصول اليونانية والرومانية في الحضارة الإسلامية واتخذوا لأنفسهم منهجاً ظاهرياً قائما على التماس الاشباه والنظائر بين الفكر الإسلامي والفكر اليوناني والروماني ثم الانتهاء من ذلك كله إلى إنكار الحضارة الإسلامية باعتبارها اقتباساً صرفاً لمعارف الآخرين»[3].

وهكذا بدا لنا جلياً أن هؤلاء المستشرقين بشكل عام وفي عموم دراساتهم والتي عكفوا عليها سنين طويلة لم يكونوا بمعزل على تلك المؤثرات التعسفية التي ظلت تراودهم في مؤلفاتهم وعلى مر العصور والتي جعلتهم يحيدون عن ميدان البحث العلمي الذي ادعوا أن أصل الدراسات عندهم وغيروا بذلك وجه الحق والحقيقة العلمية فعلى الرغم من ادعاء معظمهم التخلص والتحرر من تلك القيود والمؤثرات التي تحول بينه وبين قول الحق إلا

(1) ينظر السباعي، المكان نفسه.

(2) ينظر انور الجندي، الإسلام في وجه التغريب، 276.

(3) ينظر دراسات في الفكر العربي الإسلامي، 143.

أننا وجدناهم لم يتمكنوا من ذلك أبداً بل ظلت آثار تلك العلاقة السلبية بادية ظاهرة على جلّ مؤلفاتهم بشكل أو بآخر وتنبئ عن غرض خبيث دنيء.

ويقول فيهم الأستاذ الشكعة (إن جمهرة المستشرقين باستثناء القلة القليلة منهم تقف من الإسلام عقيدة وحضارة موقف العدو المتربص، والخصم المتلصص الذي يبحث عن نقاط الضعف، فإذا لم يجد اختلقها ويتصيدوا مواطن الزلل فإذا لم يعثر عليها لجأ إلى الخبر سعياً إلى تزييفه وإلى الاثر عامداً تشويهه فإذا ماسألناه عن الأسباب التي دفعت هذه من فئة الباحثين إلى امتطاء هذا المركب الصعب كانت الإجابة سهلة يسيرة ذلك أن الاستشراق صدر عن أبوين معاديين للإسلام هما الصليبية التبشيرية والاستعمار والإسلام خطر على باطلها)[1].



(1) ينظر مصطفى الشكعة، مناهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية، 2/ 278 – 279.

فئات المستشرقين وطبيعة دراساتهم

من المعلوم لدينا أن فئات المستشرقين عديدة وجنسياتهم مختلفة فهم من دول أوروبية شرقية وغربية عديدة وينتمون إلى امم مختلفة ولهم دوافع متنوعة.

فإلقاء نظرة فاحصة على مؤلفاتهم وبحوثهم ودراساتهم لنجد أنهم يشكلون فئات مختلفة من حيث التعصب والانصاف والعلمية والسطحية والدقة والتزييف وفي احيان كثيرة كانت تتداخل هذه الدوافع فيكون هناك مزيج متعدد الاتجاهات والميول غير أنه يمكن تقسيم هؤلاء إلى عدة فئات وحسب ما قدموه من نتاج علمي من خلال دراساتهم للشرق العربي والإسلامي:

1. فريق من المستشرقين اعتمد في دراسته للإسلام على منهج البحث العلمي ولكنه انحرف عن الأهداف الحقيقية فذهب يركز على نقاط الضعف في الإسلام (من وجهة نظره) واخذ هذا الفريق بعد ذلك يشكك في صحة الإسلام ورسالته وفي التوحيد والاركان، بل وذهب إلى أبعد من ذلك إلى الطعن في مصداقية القرآن الكريم من حيث مصدره أو نصه ثم اتجه بعد ذلك إلى الطعن في السنة النبوية والتي تعد عند المسلمين المصدر التشريعي الثاني بعد القرآن الكريم فلقد طعنوا في صحة الأحاديث النبوية ونسبتها إلى الرسول ﷺ وكان هذا مدخلاً خطيراً من قبلهم للتشكيك في الفقه الإسلامي وفي قدرة اللغة العربية على مواكبة التطور الإنساني والحضاري وخرج هذا الفريق من المستشرقين بنتيجة هي عدم صلاحية الإسلام كدين يغطي حاجات الإنسان وكان على رأس هذا الفريق المستشرق (شاخت) في دراساته للفقه الإسلامي

والمستشرق كارل بروكلمان في دراسته للأدب العربي والتأريخ الإسلامي ونولدكه وبلاشير وغيرهم كثير. واتسم هذا الفريق في اعماله بالتناقضات والكذب والزيف فكانت جميع دراساتهم تنم عن فساد الآراء والتركيز على الطعن في الإسلام ورسوله فهذا المستشرق الألماني (كايتاني) المعروف بتعصبه وكرهه للإسلام ورسوله يقول: (إن الإسلام لم يكن حركة دينية، إذ لم يكن ديناً إلا في الظاهر وأما في الجوهر فكان سياسياً واقتصادياً) في حين يأتي المستشرق الهولندي (ديه خويه) ليناقض سلفه في تفكيره السابق فيقول (إن الداعي إلى ظهور الحركة الإسلامية هو الدين... إلا أن القبائل العربية وسكان مكة والمدينة اقبلوا على الإسلام ودخلوه لأسباب غير دينية)[1].

2. فريق من المستشرقين التزم المنهج العلمي الموضوعي واستخدم النزاهة العلمية في دراسة الاسلام. فكانت دراساتهم منصفة للإسلام ورسوله. ودفع هذا الأمر إلى اشهار بعض منهم إسلامهم من امثال المستشرقين بوركهات، كرنكوف، وزدنستين، شنيتسر، دينيه، فلوري، مبشوبيللر، مارمادول، فيلبي، ليوبوفايس، وجرمانوس، فضلاً عن العديد من البولونيين والأحد عشر المانياً الذين أشهروا إسلامهم في برلين وتسموا باسماء عربية إسلامية واسلم بعضٌ منهم على يد شيخ الأزهر، فضلاً عن الدكتور وارز والمستشرقة الالمانية ولايان التي تسمت بسامية الازهر، والامريكيين خديجة دلتنك وليورس الشيخ محمد الأزهري والسوسريانن، جميلة زوسترنج والبرت كادرك والبريطانيين جونسن والصحفي لويس هارد الذي أطلق على نفسه اسم رمسيس محمد يوسف وايفون الفيت كوكا وقد تسمت بإيناس غلام قاسم[2].

3. فريق من المستشرقين اقدم على دراسة اللغة العربية والأدب العربي واهتم بالمعاجم

(1) ينظر أحمد موسى سالم، حقائق أساسية في الإسلام، 182.

(2) ينظر العقيقي، المستشرقون، 161 – 162.

العربية اللغوية أو ما شابه ذلك فترك هذا الفريق في هذه المجالات بحوث ودراسات ومؤلفات ذات قيمة علمية وفائدة كبيرة اغنت المكتبة العربية والإسلامية بما قدمته لها من نتاج علمي جيد[1].

4. فريق من المستشرقين من أصحاب المصالح الخاصة تميز هذا الفريق من المستشرقين بخدمة المصالح السياسية والاقتصادية والاستعمارية لدولهم فجاءت دراساتهم وابحاثهم ذات أهداف خاصة لخدمة مؤسساتهم السياسية والحكومية يقول في ذلك المستشرق دي بارت وهو الذي عبر بصدق عن خصوصية هذا الفريق: «لا يعيش المستشرقون في الفراغ شأنهم في ذلك شأن ممثلي الأفرع الأخرى من الدراسات بل يضعون أنفسهم وإن بدا عملهم شبيهاً بعمل العلماء الخاصة شبهاً كبيراً في خدمة المجتمع الذي ينتمون إليه والذي يمولهم ويشجعهم ويتضح هذا في أن تخصص الاستشراق له في كل جامعة على الأقل كرسي يمثله»[2]. كما يؤكد هذه الحقيقة الشيخ محمد الغزالي (رَحِمَهُ ٱللَّهُ) بقوله: «ومن خدع الآمال أن ننتظر من أحد من المستشرقين بحثاً مبرراً عن العيوب يتنافى مع وظيفة الاستشراق الذي يمهد الطريق أمام الاستعمار الغربي والشرقي، كما تمهد الدبابات الطريق أمام زحف المشاة في فنون الحرب»[3].

5. فريق من المستشرقين من أصحاب الهوايات، يبدو أن معظم أعضاء هذا الفريق هم من الذين كتبوا في العصور الوسطى أو كتبوا في العصر الحديث وتميز عمل هؤلاء بالكذب والافتراء والدس والاستهزاء على الإسلام ورسوله ودفعهم حقدهم الدفين وخيالهم المريض إلى كيل التهم الباطلة ولصق الاساطير الكاذبة بالإسلام ورسوله

---

(1) ينظر زقزوق، الاستشراق، 75.

(2) ينظر السباعي، الاستشراق، 37.

(3) ينظرمحمد الغزالي، فقه السيرة، ط (مصر).

ويرجع سبب ميل هذا منهم إلى هذه الأساليب بالنيل من الإسلام وحياة الرسول ﷺ والتعرف على عقيدة التوحيد، على الرغم من أنه كان بإمكانهم تحقيق ذلك من خلال المؤلفات التي كانت تصدر عندهم عن الإسلام ورسوله ذات الموضوعية، إلا أنهم حاولوا السير وراء أهواءهم وحقدهم وظلوا هذه الفترة يجهلون كل شيء عن الإسلام ونبيه (عليه الصلاة والسلام) بل جهلوا حتى اسم محمد ﷺ فنرى اسم محمد ﷺ في مؤلفات العصور الوسطى يكتب (mophmet) أو (Baphnet) أو (Bofum) بل إن قسماً من الأوروبيين كانوا يعتقدون بأن محمد ﷺ هو إلٰه المسلمين وأن الذي جعل هؤلاء يعتقدون ذلك هو سيطرة الكنيسة على الساحة الثقافية والاعلامية وبعد ان هدد الإسلام عقيدة النصرانية من جذورها وفي عقر دارها فكانت ردة فعل الكنيسة عنيفة جداً ضد الإسلام بحيث جندت كل طاقاتها الاعلامية والثقافية ومواردها المالية لكبح جماح الإسلام وتشويهه لذا كانت معظم مؤلفات المستشرقين في هذه المرحلة تعتمد السخرية والكذب والاستهزاء مما يدل على تعصب أعمى وحقد أسود وجهل مطبق بالإسلام وعقيدته لهذا كانت هذه المؤلفات لا تتسم أبداً بالعلمية والمنطقية. كما أن أعضاء هذا الفريق عمدوا إلى اعتماد أسلوب الحكايات والاقاصيص الكاذبة والملفقة والسوقية، والألفاظ المستهجنة على الرغم من ذلك لم يكن لهذه المؤلفات في سوق المعاملات الثقافية الأوروبية أي ثمن ولم تنل مؤلفاتهم إلا الرفض والسخرية وعدم القبول من لدن المفكرين المنصفين من زملائهم الذين عمدوا على تنفيذ هذه الاكاذيب وهكذا بدا هذا الفريق يتلاشى وينتهي بمرور الوقت.

6. فريق من المستشرقين من أصحاب الأهواء الخاصة:

تميز هذا الفريق من المستشرقين بنرجسيته العالية وادعائه بأن الرجل الأبيض هو المتميز عمن سواه من البشر فكانت أبحاثهم ودراساتهم تنم عن غطرسة فائقة، فلقد أعمتهم الضلالة وفقدان الموضوعية والنزاهة العلمية في أعمالهم البحثية ودراساتهم العلمية كافة

فراحت أقلامهم تكتب بأساليب تملؤها العداوة والكره والغيظ والحقد على دين الإسلام ورسوله وهكذا حاولوا الخروج بنتيجة مفادها أن الدين الإسلامي لا قيمة له ولا شأن له في الحياة البشرية ومثل هذا الفريق من المستشرقين (بدويل) و(بريدو) و(سيل) وهم من رواد القرن الثامن عشر الميلادي، وكان لكتابات (سيل) اثر كبير في مفاهيم الأوروبيين والذي نقل لهم صورة خاطئة عن الإسلام ورسوله ويتساوى في ذلك المستشرقين المتدينين منهم والملحدين الذين كانوا يرون أن النيل من الأديان وسيلة لهم وعلى درجة الخصوص الإسلام ومن أبرز هؤلاء (فولتير) أحد زعماء الثورة الفرنسية. ومؤلفات هؤلاء ودراساتهم جميعها لاقيمة علمية لها في الاستشراق العالمي.

ويقول الأستاذ العقاد في تقييم مؤلفات المستشرقين عموماً ابتداءً من نشأة الاستشراق وحتى الآن: «كل ما اطلعنا عليه من مؤلفاتهم المتلاحقة في العصر الحاضر يدل على أن المخلصين منهم فريقان:

طلاب المعرفة وطلاب العقيدة وقد تجمعهما فئة واحدة يقال عنهم جميعاً أنهم طلاب الحقيقة في عالم المعرفة وفي عالم الضمير ثم يقول وفيما عدا طلاب العلم وطلاب العقيدة يندر الإخلاص في مؤلفات القوم حيثما عرضوا للمسلمين، أو عرضوا لما اعتقدوه أو تعودوه لكنهم في قلة الاخلاص أو سوء النية درجات وانواع. فهناك المتعصبون للغرب وطنياً وجنسياً كما يتعصب الريفي الساذج لكل شيء في قريته على كل شيء في قرية سواه. وهذا النوع من التعصب يظهر لديهم حينما يكتبون عن المسلمين العرب بصيغة خاصة لا المسلمين من غير العرب، لأنهم من السلالة الآرية. ثم يضيف قائلاً: وهناك طائفة أخرى وهي طائفة الماديين الملحدين ونصيب الإسلام عند هؤلاء في خطة الهدم والتشويه كما يذكر الأستاذ العقاد: إن أخطر هؤلاء جميعاً طائفتان تملكان من وسائل الدعاية ما ليس

لطائفة أخرى من طوائف المغرضين وهي طائفة الصهيونية والاستعمار[1].

ويضيف الأستاذ العقاد في معرض حديثه عن هؤلاء المستشرقين بأن الميزان لما ينشره الغربيون عن الإسلام وأهله في العصر الحاضر قائلاً: «والنتيجة التي نستخرج منها ميزاناً لما ينشره الغربيون عن الإسلام والمسلمين وحصر البواعث التي تدافع عن غير المخلصين إلى الجهل بالحقيقة وإخفائها إذا عرفوها فالمخلصون منهم هم طلاب العلم والعقيدة وغير المخلصين هم المتعصبون للوطنية الغربية والمتعصبون للدعوة المادية والمتعصبون للدين عن إيمان أو غش واحتراف»[2].



(1) ينظر عباس محمود العقاد، ماذا يقال عن الإسلام، 7 – 8.

(2) ينظر العقاد، ماذا يقال عن الإسلام، 15 – 16.

الاستشراق والاستعمار والعلاقة بينهما

مما لا شك فيه أصبح من الثابت لدينا أن هناك علاقة حميمة ما بين جميع فئات المستشرقين على الرغم من اختلافهم في بعض وجهات النظر إلا أنهم جميعاً متفقون على خدمة دولهم الغربية سواءً شرقية أم غربية، فجاءت معظم دراساتهم وأبحاثهم لخدمة مصالح دولهم من أجل تمهيد الطريق للدخول إلى البلاد العربية ثم الإسلامية فمن خلال تلك الدراسات مهدوا لجيوش المبشرين للدخول إلى البلاد الإسلامية ثم مهدوا للقادة العسكريين من أجل فرض سلطانهم وسيادتهم على البلاد العربية والإسلامية فكانت توجهاتهم واعمالهم تأتي لخدمة هدف سياسي عسكري هو الاستحواذ على مقدرات هذه الدول ومن هناك لا بد من الوقوف لبيان العلاقة ما بين حركة الاستشراق وحركة الاستعمار.

لقد كان للمد الاستعماري في العالم العربي والإسلامي دور كبير في تحديد طبيعة النظرة الأوروبية إلى الشرق وبخاصة بعد منتصف القرن التاسع عشر وقد افاد قادة الاستعمار من التراث البحثي الذي قدمه رواد الاستشراق ومن ناحية أخرى كان للسيطرة الغربية على الشرق دورها في تعزيز موقفهم الاستشراقي والتبشيري ثم تواكبت رحلة التقدم الكبير في مؤسسات الاستشراق مضمونة مع مرحلة التوسع الأوروبي في الشرق[1].

وقد شهد القرن التاسع عشر استيلاء الدول الغربية الاستعمارية على مناطق شاسعة من العالم الإسلامي ففي 1857 استولى الإنكليز سياسياً على بلاد الهند واصبحت بذلك رسمياً

(1) ينظر شاخت، تراث الإسلام، 78.

تابعة للتاج البريطاني بعد ان كانت حتى ذلك الحين واقعة تحت نفوذ شركة الهند الشرقية منذ القرن السابع عشر وفي نفس العام استولى الفرنسيون على الجزائر بعد ان بدأت حملاتهم العسكرية منذ عام 1830م كما احتلت هولندا قبل ذلك أي في بدايات القرن السابع عشر جزر الهند الشرقية (اندونسيا) عن طريق شركة الهند الهولندية وفي عام 1881م تم احتلال مصر وتونس، وظل الاستعمار الغربي يقوم بتقطيع اوصال الدول العربية والإسلامية جزءاً جزءاً ويضعها تحت سيادته حتى استطاع في نهاية القرن أن يخضع العالم الإسلامي والعربي من الشرق وإلى الغرب كله تحت سيطرته الفعلية.

إن وقوع جميع الدول العربية والإسلامية تحت سيطرة الدول الغربية الاستعمارية دفعها إلى تجنيد جيش من المستشرقين لخدمة اغراضها وتحقيق أهدافها وتمكينها من السيطرة والبقاء في هذه البلاد لقرون طويلة ومن هنا نشأت علاقة غير شريفة إلا أنها وطيدة ما بين الدول الاستعمارية والحركة الاستشراقية وأصبحت هذه العلاقة وثيقة رسمية واندفع عدد كبير من المستشرقين بعد أن وجدوا أن دولهم وكنائسهم تدفعهم وتدعمهم بالاموال الكثيرة وتؤازرهم سياسياً وعسكرياً. جعلوا من أنفسهم وسيلة حقيرة لإذلال المسلمين واضعاف شأنهم، وهذا المستشرق الألماني (استيفان فيلد atephan wild) والذي عبر عن حقيقة هؤلاء المستشرقين فيقول: (والأقبح من ذلك أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقون وسخروا معلوماتهم عن الإسلام وتأريخه في سبيل مكافحته والإساءة إليه وإلى المسلمين وهذا دافع مؤلم لا بد من أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة[1]، وبأن هناك من زملائهم كانوا سلعاً رخيصة استخدمت لتحقيق مآرب دولهم الاستعمارية باسم الدين)[2].

(1) ينظر زقزوق، الإسلام، 60.

(2) ينظر المكان نفسه.

والاستعمار الغربي لبلاد المسلمين في حقيقة أمره هو امتداد للحروب الصليبية التي كانت في ظاهرها حروباً دينية وفي حقيقتها حروباً استعمارية وكانت العودة إلى احتلال البلاد العربية والإسلامية حلماً يراود الزعماء الغربيين منذ هزيمة الصليبيين، فاتجهوا إلى دراسة هذه البلاد العاصية عليهم وفي كل مرفق من مرافق حياتها وشؤونها الخاصة والعامة من عقيدة وتراث وعادات وتقاليد واخلاق وثروات من أجل التعرف على مواطن القوة فيعملون على اضعافها وإلى مواطن الضعف فيغتنموا منها وهكذا[1].

ولم تكن علاقة الحركة الاستشراقية بالحركة الاستعمارية كما يظن البعض خطأً هي مجرد اضعاف طابع التبرير العقلي على المبدأ الاستعماري بل كان الأمر كما كان يقول الأستاذ ادوارد سعيد: ابعد من ذلك وأعمق فالتبرير الاستشراقي للسيادة الاستعمارية قد تم قبل حدوث السيطرة الاستعمارية على الشرق وليس بعد حدوثهما[2].

إذن فلقد كان الجهد الاستشراقي بمثابة دليل للاستعمار في تعريف الزعماء المستعمرين على كافة شعاب واودية الشرق من أجل إحكام السيطرة عليه وإخضاع شعوبه كافة ثم إذلالها فالمعرفة بالاجناس المحكومة من الشرقيين هي التي تجعل حكمهم سهلاً ومجزياً فالمعرفة الدقيقة تمنح القوة ومزيد من القوة يتطلب مزيداً من المعرفة فهناك باستمرار حركة جدلية بين المعلومات والسيطرة المتنامية[3].

وهكذا توحدت اتجاهات الاستشراق مع الاستعمار لا سيما بعد الاستيلاء الغربي سياسياً وعسكرياً على معظم البلاد العربية والإسلامية، حيث ادى ذلك إلى اضعاف الروح المعنوية والتي بدورها أدت إلى إضعاف المقاومة الروحية ثم العسكرية في نفوس عموم

---

(1) ينظر زقزوق، الإسلام في الفكر العربي، 60 – 61.

(2) ينظر زقزوق، الإسلام، 68 – 69.

(3) ينظر البهي، الفكر الإسلامي الحديث، 534.

المسلمين والعمل على تشكيك المسلمين في معتقداتهم وتراثهم وإذا ما تم ذلك تم للسيد المستعمر العسكري والسياسي من الاستيلاء ثم الاخضاع للمسلمين كافة اخضاعاً تاماً ثم احلال الثقافة المستوردة العلمانية الصليبية محل الثقافة الإسلامية ومن هنا نرى أن الحركة الاستشراقية والحركة الاستعمارية قد حققتا معظم أهدافهما في النيل من الإسلام وعقيدته ورسوله.



الحركة الاستشراقية واليهود

ولابد لنا هنا أن نتساءل عن دور اليهود وعلاقته بالحركة الاستشراقية، حيث إن الغالب على الأبحاث والدراسات والمؤلفات التي نشرت قديماً وحديثاً هي لمستشرقين نصارى وكانت لهم اسبابهم في معاداة الإسلام والمسلمين عرباً أم غير عرب، ولكن نقول هل انضوى تحت مظلة حركة الاستشراق مفكرين من اليهود ولماذا؟

مما لا شك فيه أن المنتمين إلى حركة الاستشراق العالمي تعددت جنسياتهم وتنوعت مذاهبهم، إلا أننا رأينا ان غالبيتهم كانوا نصارى متدنيين أو علمانيين أو ملحدين وهكذا وقد اغفلت الكتب الحديثة وبشكل مباشر الحديث عن دور المفكرين اليهود من الذين اسهموا في هذه الحركة ومن المؤكد أن اليهود كانت مصلحتهم تقتضي عدم الترويج لمعتقداتهم اليهودية عندما دخلوا في هذه الحركة واستطاعوا أن يتكيفوا معها ليصبحوا بعد برهة من الزمن جزءاً من هذه الحركة التي غلب على عناصرها (المفكرون النصارى).

فهل دخل المفكرون اليهود هذه الحركة بوصفهم أوربيين أم دخلوها يهوداً في حين يمكن أن نسجل بأن علماً من اعلامهم وهو المستشرق (جولد تسيهر) وهو يهودي مجري، والذي أصبح فيما بعد المرجع العلمي في الإسلاميات في عموم أوروبا، ولاتزال مؤلفاته وكتبه تدرس حتى اليوم وتحظى بالتقدير والثناء الكبيرين عند كل فئات المستشرقين.

وعليه يمكننا القول أن المفكرين اليهود في أوروبا سواءً في شرقها أو غربها، ولم يريدوا أن يعملوا داخل الحركة الاستشراقية بوصفهم مستشرقين يهوداً حتى لا يعزلوا

انفسهم عن مجمل الحركة وبالتالي يقل تأثيرهم المباشر، ولهذا عملوا بوصفهم مستشرقين اوربيين وبذلك حققوا هدفين الأول هو فرض انفسهم على الحركة الاستشراقية كلها ثم ثانياً تحقيق أهدافهم في النيل من الإسلام ورسوله وعقيدته، وهي أهداف تلتقي عندها جميع فئات المستشرقين مهما كانت جنسياتهم وعقائدهم.

وقد عبر الدكتور محمد البهي حول تفسير إقبال مفكري اليهود على حركة الاستشراق بقوله: «وتتلخص هذه المسألة في أنهم أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية وسياسية، أما الأسباب الدينية فإنها كانت تتمثل في محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك في قيمته بإثبات فضل اليهودية عليه وذلك بادعاء أن اليهودية في نظرهم هي مصدر الإسلام الأول أما الأسباب السياسية فإنها تتصل بخدمة الصهيونية فكرةً أولاً ثم دولةً ثانياً[1]. ويضيف الدكتور البهي: إن وجهة النظرة هذه على الرغم من أنها لا تعتمد على مصدر مكتوب يؤيدها فإن الظروف العامة والظواهر المترادفة في كتابات هؤلاء المستشرقين تعزز وجهة النظر هذه وتخلع عليها بعض خصائص الاستنتاج العلمي[2].

كما أن تاريخ العلاقات السياسية والدينية ما بين المسلمين واليهود ليست بحاجة إلى دليل لإثبات كراهية اليهود للإسلام ورسوله وذلك لأن هذه الكراهية ظهرت واضحة كالشمس المشرقة منذ ظهور اولى بوادر الدعوة الإسلامية في مكة ثم المدينة وقد اكد القرآن الكريم على هذه الظاهرة بقوله: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ ... ﴾[3].

وقد ظلت هذه العلاقة سلبية إلى الآن فنجدهم في كل مناسبة وفي كل فرصة يجاهرون

---

(1) ينظر البهي، الاستشراق والخلفية الفكرية، 49 – 50.

(2) ينظر البهي، الفكر الإسلامي الحديث، 536.

(3) المائدة، الآية 82.

بعدائهم للإسلام ولرسوله ولما ظهرت الحركة الاستشراقية وجدوا فيها ضالتهم التي ينفثون من خلالها كل سمومهم ضد الإسلام والمسلمين ورسوله، فدخلوا فيها من أوسع أبوابها إلا أنهم كانوا على ما يبدو متخفين تحت رداء العلم والمنهج العلمي الموضوعي الأكاديمي إلا أن طروحاتهم ضد الإسلام ورسوله كشفتهم وبانت عن نواياهم فعرفوا قبل غيرهم.



الحركة الاستشراقية والغزو الفكري

قبل الحديث عن الغزو الفكري وعلاقته بحركة الاستشراق لا بد من التعريف به:

فالغزو لغة: بمعنى غزا الشيء غزواً أي اراده وطلبه، وغزوت فلاناً اغزوه غزواً والغزوة: ما غزا وطلب مغزى الكلام مقصده والغزو القصد[1].

واصطلاحاً: يعني: «الغزو الخروج إلى محاربة العدو وقد غزا يغزو غزواً، فهو غازٍ وجمعه غزاة وغُزّى»[2].

«والمراد بالغزو هو تحول جماعة عنصرية أو ثقافية مكان جماعة أخرى لمنطقة اخرى. أو دخول مشروعات تجارية جديدة إلى منطقة استيطان معينة»[3].

أما تعريف الفكر فهو ظاهرة تأريخية واجتماعية نمت بالعمل البشري والممارسة الاجتماعية وتطورت خلال المراحل المختلفة في تاريخ التطور الإنساني وليست اللغة الا التعبير الاجتماعي الخارجي لعمليات الفكر الداخلية[4].

وبعد أن تم لنا تعريف معنى الغزو ثم الفكر، تبين لنا أن مسألة الغزو الفكري هي مسألة

---

(1) ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة غزا 15 / 123.

(2) ينظر الراغب، مفردات غريب القرآن ، 450.

(3) ينظر الغزو الأوروبي للفكر الإسلامي، 4.

(4) ينظر الغزو الأوروبي، 4 – 5.

قديمة تولد دائماً مع ولادة كل مذهب أو دين جديد وهذا ماحدث بالظبط مع الإسلام ومنذ أن ظهر ظهرت معه مسألة الغزو الفكري بكل شكل ولون... علمياً أو اجتماعياً فضلاً عن مجالات أخرى وغير مقتصرة على نوع واحد محدد، وهذا أحد الباحثين المعاصرين يحدثنا عن ذلك بقوله: «لقد اتضح لنا أن الغزو الفكري لم يقتصر على العلم والتربية والتعليم والثقافة والفن فحسب بل حمل معه بالاضافة اليها تيارات مسمومة من التبشير المسيحي وكذلك موجات عارمة من الالحاد والدعوة إلى معارضة الأديان وتثبيت ركائز النزعة العلمانية»[1].

وكان للغزو الفكري الاستشراقي العديد من مجالات العمل في البلاد العربية والإسلامية، وقد اتخذ من أجل الوصول إلى أهدافه العديد من الصور والأشكال وتحت مسميات عديدة وكان الاستشراق أبرزها على الاطلاق وقد سبق الحديث عنه وبشكل تفصيلي وشامل.

وأما الشكل الثاني من اشكال الغزو الفكري التي تعرض له الإسلام والمسلمون والاكثر جرأة على المسلمين هو العمل على نشر المسيحية وتنصير الناس[2].

ويبدو ان هذه الفكرة مأخوذة من البشارة بالنبي محمد ﷺ ففي انجيل متى وردت هذه العبارة مسندة إلى النبي يحيى ﷺ والمسمى بالأناجيل (بيوحنا المعمدان) وفيها يقول: (توبوا لأنه اقترب ملكوت السماوات) فمن هو ملكوت السماوات الذي بشر به النبي يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ؟! هل هو عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو ما ذهب إليه عموم النصارى فالتبشير والإنذار أمران متقبلان. إن ورود هذه العبارة عن النبي عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نفسه فهو

(1) ينظر محمد علي أبو ريان، 22.

(2) ينظر المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب، 1 - 2.

تخصيص لذلك العموم[1].

ومن الثابت ان التبشير هو خاص بالإسلام ونبيه محمد ﷺ لذا كان ضرورياً أن يقال بما يفعله هؤلاء المساكين ممن يبثون أفكارهم غير السليمة وغير الدقيقة بالمنصرين وليسوا بالمبشرين[2].

لأن أصل التبشير في لغة الاخبار بما هو خير والتبشير والتنصير تعبير أطلقه رجال الكنيسة النصرانية على الأعمال التي يقومون بها لتنصير الشعوب غير النصرانية وعلى وجه الخصوص الشعوب الإسلامية عربية كانت أم غير عربية.



(1) ينظر العهد الجديد والمزايد صحاح 3 فقرة 2.

(2) ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة بشر.

الحركة الاستشراقية والتنصير

التنصير أطلق عليه تمويهاً وخداعاً اسم التبشير منذ القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي. ثم نما وأصبح له منظمات كثيرة ومؤسسات ضخمة ورصدت له اموال طائلة تفوق الخيال وكان لها في كثير من الاحيان سند حكومي سياسي وعسكري.

والتنصير كلمة مأخوذة من النصرانية وهي دين السيد المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهي كلمة مشتقة من رجال الناصرة الذين ناصروا السيد المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والناصرة هي قرية في فلسطين من مناطق الجليل وهكذا عمد رجال الكنيسة على استبدال اسم التنصير باسم التبشير حتى يكون أكثر قبولاً وانسجاماً مع أهدافهم، وذهب البعض منهم إلى القول ان التبشير خاص بالديانة المسيحية وتم لهم ذلك من خلال شرح مفاهيم الدين المسيحي وذهبوا بالقول إلى ان التنصير خاص بالأديان الأخرى دون النصارى أي ليقوم رجال الدين بتنصيرهم والعمل على دخولهم إلى الديانة النصرانية.

ومن أجل أن يحقق دعاة التنصير كافة أهدافهم تجاه الأمم غير النصرانية سلكوا كافة السبل المتاحة أمامهم منها الاجتماعية والتربوية والصحية والاقتصادية وكل ما قدروا عليه. ولاسيما في القارة السوداء الأفريقية وعلى وجه الخصوص في مجتمعات السود الفقيرة البسيطة وقد ظهر ذلك جلياً من خلال المؤلفات الأدبية والثقافية والدينية التي قام بتأليفها المبشرون العاملون هناك وقامت على نشرها وترويجها الكنائس الأوروبية كافة فضلاً عن عقد المؤتمرات والندوات وإقامة الحلقات النقاشية والدراسية كل ذلك كان يتم بالدعم اللامحدود من قبل مؤسسات الدولة السياسية والعسكرية والثقافية والاجتماعية، استمر

ذلك إلى أن تم للمبشرين من نشر ثقافاتهم داخل المجتمعات غير النصرانية ومن هنا ندرك تماماً كيف أن حركات الاستشراق والتنصير والاستعمار يستندون إلى ركائز واحدة من أجل تحقيق هدف واحد هو السيطرة على البلاد العربية والإسلامية وهذا ما يسعون إليه ليل نهار والمسلمون في غفلة عن ذلك.

ومن أهم الركائز المشتركة والتي اختص بها التبشير:

1. العمل على الطعن في كافة المعتقدات التي تغاير المسيحية وعلى وجه الخصوص الاسلام، لأنه ينادي بالتوحيد وهم ينادون بالتثليث فجهودهم مستمرة منذ قرون ولا زالت على وتيرتها وهي الطعن بالإسلام والإساءة إلى رسوله ثم الطعن في الصحابة الكرام والرواد الاوائل من المسلمين ومن هنا ترى بين الحين والحين تقوم مؤسسات إعلامية بالإساءة إلى الرسول محمد ﷺ وهي حملات مستمرة لا تكف ولا تهدأ، أو صناعة الافلام التي تسيء إلى الإسلام والمسلمين وتصورهم على انهم وحوش أو برابرة لايستحقون الحياة فمن الواجب قتلهم أو استعمارهم أو تخليصهم من دينهم الذي يتمسكون به أو تأليف الكتب أو نشر المجلات الهدف من هذا كله هو الإساءة إلى الإسلام ورسوله وعامة الصحابة الأوائل فهم قاصدون عامدون وهم في الوقت نفسه يحاولون جس نبض الشارع المسلم هل لازالوا كما كانوا متحمسين للإسلام ورسوله ويرفضون أية محاولة مهما كانت بسيطة للإساءة إليه ولرسوله؟ولما كانت ردة الفعل عنيفة من قبل الغيارى من المسلمين عمدوا إلى تهدئة الموقف وهكذا دواليك.

2. استغلال حاجات الناس الاقتصادية والصحية والثقافية والعمل على بذل الأموال لغير المسيحيين من أجل حملهم إلى دخول النصرانية واستغلال حاجاتهم المعيشية والصحية ومن هنا تبدأ عملية المقارنة ما بين عقيدة المسلمين التي لا تمد يد المساعدة للمحتاجين وبين المسيحية التي ترأف حتى بغير المسيحيين وهذا البرنامج يطبق بشكل مستمر على مسلمي آسيا وافريقيا من أجل حملهم على ترك الاسلام، والانتقال إلى

النصرانية وقد نجحوا مع العديد من المجتمعات في آسيا وأفريقيا[1].

فضلاً عن ذلك فقد اعتمد دعاة التبشير إلى فتح المدارس التبشيرية والجامعات العلمية والمستوصفات الصحية والمستشفيات ودور للعبادة وبذل الأموال وتقديم المساعدات الغذائية والهبات وكل ذلك يحدث في مؤسسات خيرية وإنسانية[2].

3. العولمة: منذ نهايات القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين ظهرت ركيزة جديدة لحركة الاستشراق العالمية ألا وهي العولمة فأصبح العالم يعاني من (الاستعمار والاستشراق والتبشير) فضلاً عما سمى بالعولمة، ولم يظهر تعريف محدد لمصطلح العولمة حتى اليوم، ولم يتم الاتفاق بين الذين ابتكروها على تعريف شامل كامل لها إلا انه تم تعريفها بالمفهوم الميسر (هي السيطرة للدول الرأسمالية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية على السوق العالمية، وكما هي محاولة لدمج شعوب العالم الثالث بوتيرة الحضارة الغربية الرأسمالية القائمة على اقتصاد السوق حيث يصبح العالم كله سوقاً للدول المنتجة، ومن خلالها (أي العولمة) بالإمكان نشر ثقافات وإيديولوجيات وقيم الغرب بين شعوب العالم الثالث بشكل سهل ومن دون أي عقبات إلا الإسلام فهو العقبة الكأداة أمام نجاح العولمة في تحقيق كامل أهدافها بدمج العالم الثالث بعجلة الحضارة الغربية فمن خلال العولمة يمكن اذابة الدين والمعتقد الإسلامي وابقاءه كشعائر خاصة بين الافراد وليس للدول أي تدخل في ذلك في حين أن مؤسسي فكرة العولمة يعلمون حق اليقين انها لن تستطيع وبما أوتيت من قوة ان تشكك المسلمين بدينهم أو المساس بمبادئه أو عقيدته التوحيدية أو الإساءة إلى رسوله الخاتم ﷺ.

فلقد سلكت هذه الحركات عدة سبل من أجل تمرير أهدافها على الرغم من أنها

---

(1) ينظر أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها.

(2) للمزيد ينظر عبدالعظيم، الإسلام في مواجهة الاستشراق، 605 – 606.

جندت لهذا العمل وغيره جيوشاً من المنتفعين من الذين ينادون بفكرة وحدة الأديان ووحدة المعتقدات والقول بالإمكان الخروج بدين عالمي موحد بضم كافة الاديان.

وبعد هذا الاستعراض السريع للغزو الفكري الاستشراقي يمكننا القول: إن للغزو الفكري الاستشراقي مخاطراً عظيمةً على الإسلام والمسلمين، يصعب معها تقييم آثارها على البلاد العربية والإسلامية والتي اصبحت مرتعاً خصباً لهؤلاء.

لقد تم غزو الفكر العربي والإسلامي بشكل منظم بما أشاعه هذا الغزو من أفكار علمانية وافكار تثير الشك والظنون في الإسلام ورسوله ولقد جندت لنشر هذه المفاهيم بين المسلمين جيوشاً من الموالين للغرب وثقافته من الذين درسوا في بلادهم ونقلوا أفكارهم وثقافاتهم الفاسدة وعملوا على نشرها داخل اوساط المجتمعات العربية والإسلامية ومما لا شك فيه فلقد نجح دعاة الغزو الفكري الاستشراقي في تحقيق معظم أهدافهم في عموم البلاد العربية والإسلامية فلقد انشأوا جيلاً غريباً عن ابناء جلدتهم، واصبح معظم الشباب العربي والمسلم بعيدين جداً عن مفاهيم الحياة الإسلامية اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً وحتى سياسياً وهكذا ولد في البلاد العربية والإسلامية جيلاً لايمت بصلة إلى عروبته وعقيدته واسلامه ورسوله.

ويقول أحد الأئمة المعاصرين في معرض حديثه عن أثر الغزو الفكري الغربي لبلاد المسلمين: «وعالم اليوم هو عالم الغرب الفكري والأخلاقي والغني وليس مقتصراً على الموقع الجغرافي وحده ذلك أن من هم خارج المساحة الجغرافية وخارج اطار الحضارة الغربية حتى هؤلاء يقعون وبشدة تحت تأثير هذه الحضارة، ولا تسير حياتهم من دونها»[1]. وأن كل هذا يحدث بسبب الانفتاح المجتمع الإسلامي والعربي أمام الثقافات الأجنبية ودون ظابط وبسبب الغفلة التي يعيشها المسلمون عن حضارتهم وإسلامهم وما ابتلوا به من

---

(1) ينظر د. عبد المنعم النمر، من يحمي المسيحيين العرب، ط(بيروت).

الجمود الحضاري الذي ظهر في القرن العاشر الهجري والاستبداد السياسي الذي تعرضوا له[1]، والذي كان نتيجة لظهور الغزو الفكري الغربي الذي يستخدم القلم بدلًا من السلاح الذي يستخدم المسرح والسينما والاذاعة والتلفاز والكتب والصحافة والمدارس كوسائل لتحقيق وتمرير أهدافه[2].

إن النتيجة التي يهدف اليها الغزو الفكري الغربي للعالم الإسلامي والعربي كالآتي:

1. تفتيت وحدة المسلمين ثم فصل العرب عن غيرهم من المسلمين ثم فصل المسلمين حسب قومياتهم واجناسهم ثم العمل على اثارة النزاعات والتعصب فيما بينهم من أجل شل حركتهم وتشتيتهم. وعند ذلك يسهل السيطرة عليهم، وعندئذ تزال فكرة العالم الإسلامي الموحد وتظهر بدلاً عنها فكرة الدول العربية والدول الإسلامية ذات الحدود السياسية والجغرافية وتطبيع ابناء البلد على هذه الافكار فيصبح عند ذاك الدفاع عن الأرض والوطن بدلاً من الدفاع عن الدين والمعتقد.
2. وكنتيجة لما سبق أصبح بالإمكان بسط النفوذ الغربي الاستعماري على عموم البلاد العربية والإسلامية ثم إقصاء الإسلام عن الحكم والقيادة للدولة على اعتبار أن لكل دولة إسلامية مفاهيمها الخاصة بها ولا علاقة لها بالدول الإسلامية الأخرى فيما إذا حصل مكروه.
3. ثم خلق جيل جديد علماني غريب عن واقعه الديني بما يشاع أمامه من خلال وسائل الإعلام والقنوات الفضائية ذات الاتجاهات العلمانية، والأفلام الفاسدة المنحرفة والمسلسلات الهابطة والأغاني الساقطة التي تشيع الفحشاء والمنكر بين الناس وتزيل الحياء من وجوه النساء وتفسد الرجال وثم غسل أفكار المسلمين نساءاً ورجالاً وتعود

---

(1) ينظر الامام خاتمي، مطالعات في الدين والإسلام والعصر، ط2 بيروت، د/ ت)21.

(2) ينظر د. محسن عبد الحميد، الفكرالإسلامي، 15. كما ينظر كذلك سالم علي بهنساوي، الغزو الفكري، ط (كويت: د/ ت)17.

المسلمين على مشاهدة أفلام الزنا واللواطة وشرب الخمر وشيوع الفسوق والفجور بين الرجال والنساء وتهدم القيم الدينية والإنسانية وفساد العلاقات الاجتماعية، ويتم كل ذلك من خلال ما يسمى بالقنوات الفضائية الحرة التي هدفها الأول والأخير هو إشاعة الفساد بين أبناء الأمة الإسلامية.

4. إنشاء مدارس ومؤسسات وجامعات في بعض البلدان العربية والإسلامية تعليمية علمانية ولا علاقة للدراسات الإسلامية فيها وتستقبل الطلبة العرب والمسلمين وقد تكون هذه المؤسسات التعليمية على ارض البلاد العربية والإسلامية احياناً... وتكون فيها الدراسة مختلطة وفيها اقسام داخلية فهي مؤسسات علمانية الهدف من وراء انشائها خلق جيل من الذكور والاناث قد تم تطبيع أفكارهم على اعتبار الدين مسألة شخصية.

5. المطالبة بتحرير المرأة من قيود الدين الذي سلبها حريتها فهناك حملة عالمية منظمة من أجل تحرير المرأة المسلمة من القيود التي فرضها عليها الإسلام والتي في حقيقتها قيود اراد بها الإسلام حماية المرأة وصيانتها من الابتذال والسقوط وسط اطماع الذئاب البشرية من بعض الرجال التي لا تعرف من المرأة سوى المتعة ثم الرمي في شوارع الرذيلة.

فعلى المرأة المسلمة أينما وُجدت أن تعي مخاطر هذه الحملة التي يراد بها إسقاط المرأة المسلمة في الحضيض وليس تحريرها فهناك جيش من النساء اللواتي يسعين وراء المرأة المسلمة المحصنة من أجل إزالة الحياء منها، والخوف من الله عَزَّوَجَلَّ فهم يريدون أن تسقط المرأة المسلمة الشريفة كما سقطت المرأة الأوروبية في براثن الفساد وأصبحت تُباع وتُشترى في سوق النخاسة سوق عارضات الأزياء وسوق ملكات الجمال وأسواق أخرى الله أعلم بها.



الحركة الاستشراقية والدراسات الإسلامية

لقد تنوعت الدراسات والمؤلفات الاستشراقية التي تناولت الدراسات الإسلامية وقد اختص قسمٌ منهم بالقرآن الكريم وقسمٌ آخر بالسنة النبوية وقسم ثالث بالعلوم الشرعية والفقهية وآخر باللغة العربية وآدابها وفنونها وتميزت دراساتهم ما بين الدقة والأصالة والموضوعية والمنهجية والعلمية وما بين الكذب والدس والتدليس والفساد والبعد عن المنهج العلمي والموضوعي بل تحول بعضٌ منها إلى مهاجمة الإسلام والقدح به وبرسوله وعليه لا بد من ان نقسم موضوع الدراسة إلى انواع وحسب الأهمية وكما يلي:

1 – موقفهم من القرآن الكريم:

اهتم المستشرقون بالقرآن الكريم وجاء اهتمامهم هذا مبنياً على فهم نصوص القرآن الكريم، فاستدعى ذلك منهم العمل على ترجمته، ولما كانوا هم من جنسيات متعددة ولغات مختلفة فلقد ترجموا القرآن الكريم تبعاً لذلك إلى لغاتهم المتعددة، ويقول أحد الباحثين المعاصرين عن هذه المسألة «ولقد شاء المستشرقون أن يفهموا النصوص القرآنية عن كثب فعمدوا إلى ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات العالمية الحية، فكانت الترجمات اللاتينية والايطالية والالمانية والفرنسية والانكليزية والسويدية والهولندية والهندية وغيرها، مشتملة على جهود مضنية قاسى منها المستشرقون متاعب جسيمة لا يطيقها الكثيرون من الباحثين المسلمين إذ ليس امراً يسيراً ان يتفرغ فرد وجماعات عن لغتهم الأم غير العربية إلى ترجمة نص عربي»[1].

---

(1) ينظر محمد حسين الصغير، المستشرقون والدراسات القرآنية، (طبعة بيروت)، 96 – 97.

في حين يرى باحث آخر باستحالة ترجمة القرآن إلى غير لغته التي أُنزل بها لأنها مصدر إعجازه وبلاغته وإذا ما ترجم إلى غير لغته العربية فَقَدَ كثيراً من خواصه وإعجازه، في حين أن الترجمة التفسيرية فلا يرى فيها حرج[1].

وإذا أردنا حصر الترجمات العالمية للقرآن الكريم فيمكن حصرها بالآتي:

1. ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية عام1543م من قبل المستشرق بيلياندر.
2. ترجمة القرآن الكريم إلى الايطالية عام1698م من قبل المستشرق ماراتشي.
3. ترجمة القرآن الكريم إلى الالمانية عام 1773م من قبل المستشرق يويسن وأعاد ترجمته المستشرق فاهل عام 1828م.
4. ترجمة القرآن الكريم إلى الفرنسية سنة 1783م من قبل المستشرق سافاري وأعاد ترجمته المستشرق كازا يمبير سكن عام 1840م.
5. ترجمة القرآن الكريم إلى الانكليزية عام 1861م من المستشرق روديديل.
6. ترجمة القرآن الكريم إلى السويدية عام 1874م من قبل المستشرق ثورينرج.
7. ترجمة القرآن الكريم إلى الهولندية عام 1856م من قبل المستشرق كرامرز.
8. ترجمة القرآن الكريم إلى الهندية عام 1895م من قبل المستشرق فت[2].

وكانت أول ترجمة للقرآن الكريم في سنة 1143م، وتحت رعاية الكنيسة وبتحريض من الراهب بطرس وقام بالترجمة إلى اللاتينية الإنكليزية المستشرق (دبرت اون كيتون).

---

(1) ينظر محمد بنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم.

(2) ينظر الصغير، المستشرقون، 103 – 104.

ولقد ساد اعتقاد كبير عند المفكرين الإسلاميين أن المنطلق من ترجمة القرآن الكريم كان لحساب التبشير والاستشراق على أساس إعطاء الأوروبيين القدرة للتعرف على الجوانب التي من خلالها يستطيعون مهاجمة الإسلام والمسلمين ومحاربتهم وظهر ذلك جلياً عندما راجع علماء مسلمين تلك الترجمات والتي سلبت القرآن الكريم مهابته في النفوس وأماتت فيه روح الإبداع الجمالي في صوره وتشبيهاته وتلون الصور البلاغية فيه وأصبح له طابع الرواية الشفوية الاسطورية التي تنبعث منها رائحة الحقد على الإسلام والمسلمين وجاءت هذه الترجمات اما لعجمتهم عن فهم معانيه وبلاغته والتي لا يكاد يفهمها ويدركها إلا أهله أصحاب اللغة العربية... أو لنواياهم المشبوهة والتي قصد منها وبلا شك الإساءة والطعن في أقدس مقدسات المسلمين.

وعلى الرغم من ذلك فلقد أفادوا هم من ترجمة القرآن الكريم في فهم مسائل أخرى إسلامية، إذ عدوه السجل الحافل للإسلام ومنه تؤخذ ادق التفاصيل الشرعية والفقهية، وعليه عدّ بعضٌ من المستشرقين بأن القرآن الكريم المصدر الاساسي من مصادر معلوماتهم عن الإسلام وهذا ما أكده المستشرق (بليابيف) الروسي حيث عبر عن فكره الماركسي الالحادي في كتابه «العرب والإسلام والخلافة العربية» فقال: «إن المصدر الرئيسي الأول الذي نستمد منه معرفتنا عن نشأة الإسلام في أول عهده هو القرآن الكريم»[1].

فكان منهجهم في ذلك سلاحاً ذا حدين ويتمثل في حده السلبي بنفي الكثير من أحداث السيرة النبوية بذريعة عدم ورودها في القرآن الكريم على أنه كتاب أو سجل تأريخي يفصّل حياة الرسول محمد ﷺ فذهبوا إلى رفض أية رواية عن السيرة التي لم ترد في القرآن الكريم وبخاصة تلك التي تمجد الرسول محمد ﷺ أو إذا كان في نفيها تأكيداً لإحدى وجهات نظرهم[2].

---

(1) ينظر د. فاروق عمر فوزي، الاستشراق والتاريخ الإسلامي، ط1(1998) 60.

(2) ينظر عماد الدين خليل، منهج المستشرق واط، ط (الدوحة: 1989).

إن هؤلاء المستشرقين عمدوا فضلاً عما تقدم إلى فرض ادعاءات وفريات عديدة من أجل الخروج بنتيجة هي أن القرآن ليس كتاباً سماوياً، فهم يحاولون وبكل قوة التأكيد على بشرية القرآن الكريم وأنه ليس من عند الله وفي هذا مزلق خطير جداً وقعوا فيه لأنهم أساؤوا وبقصد إلى أهم مقدسات المسلمين كافة.

فهذا المستشرق الالماني المجري المعروف بكرهه الشديد للإسلام (جولدتسهير) يشكك وبكل صلف ووقاحة في إلهية النص القرآني ويصفه بالاضطراب وعدم الثبات قائلاً: «لايوجد كتاب تشريعي اعترفت به طائفة دينية اعترافاً عقدياً على أنه نص منزل، أو موحى به يقدم نصه في اقدم عصور تداوله مثل هذه الثورة من الاضطراب وعدم الثبات، كما نجد من نص القرآن الكريم».

وعلى الرغم من الاعتقاد الخاطئ لبعضٍ منهم ببشرية القرآن الكريم، وأنه من عند الرسول عليه الصلاة والسلام وهم قلة، لأن فئة كبيرة منهم قالت وممن استطاعوا إدراك عظمة القرآن الكريم، إلا أنهم أقروا – ومع شديد الاسف ان يهوي هؤلاء إلى هذا الدرك – بأنه ليس الا تحريفاً وتشويهاً للتعاليم اليهودية والنصرانية. فإن ذلك لا يتعدى منهم إلا أن يكون إدراكاً صاغراً لعظمة القرآن الكريم أو لاستكثارهم نسبته إلى المسيحية أو اليهودية وعلى رأس هؤلاء المستشرق جولدتسهير[1].

إن ما ذهب إليه المستشرق جولد وغيره من زملائه في الحركة الاستشراقية من إنكار نسبة القرآن الكريم إلى مصدره الإلهي هو في غاية التشكيك للوحي فقد عزّ على هؤلاء

(1) وهو اجنتس يهودي مجري الماني حاقد على الإسلام ورسوله، خليع وغزير الإنتاج واشتهر بأنه من أسوأ المستشرقين قاطبة وله عدة مؤلفات منها (العقيدة والشريعة في الإسلام)، وقد تم ترجمته لجنة من ثلاث علماء من الأزهر الشريف عام 1946م، وقد عمل هذا مدرساً في جامعة بودابوست لمدة طويلة، ينظر حمدان،طبقات المستشرقين، 115) وينظر جولد تسهير، مذاهب التفسيرالإسلامي، ترجمة عبدالحليم النجار ط (القاهرة:1955) 34 – 35.

المستشرقين وهم المخلصون لثالوثهم المقدس حتى ينسبوه لمحمد ﷺ وإن دل هذا فإنما يدل على حقدهم الدفين واللامحدود ضد الإسلام ورسوله، وبهذا يلتقي من لمس التشابه النسبي المحدود بين محتوى الديانات ومن فاض حقده على النبي محمد ﷺ ولم يقبل حتى أن يعدّه مؤلفاً للقرآن الكريم هذا مع ما يُشَكِّله هذا الرأي الصريح من فساد.

وتاكيداً لهذه الفرية الراسخة التي صنعها هؤلاء المستشرقون ثم صدقوا بها نجدهم يكتبون على اغلفة ترجمات القرآن الكريم قرآن محمد بوصفه مؤلف القرآن ويستوي في ذلك جميع الترجمات الحديثة في العصر الحديث والقديمة التي ترجمها المستشرق الفرنسي (سافاري عام 1782م) وغيره وهذا ما أقدم عليه[1] المستشرق روس الذي اختار تسمية مجافية للحقيقة وتنم عن حقد على الإسلام ورسوله فقد عنون كتابه قرآن محمد ***(The Al coran of Mohomet).***

2 – موقفهم من الرسول محمد ﷺ:

لم يسجل في تاريخ البشرية أن نبياً عودي أو أوذي من قبل اعدائه والرافضين لدعوته كما حصل مع نبينا محمد ﷺ فلقد سجل اعلى نسبة إساءة وتشهير عند اعدائه من مختلف الأديان والطوائف والاجناس وما قام به المستشرقون يشكل حلقة من حلقات هذا الاعتداء إلا أنه يعد من اشرسها واكثرها حقداً وكذباً وتشهيراً فموضوع موقف المستشرقين من الرسول محمد ﷺ يحتاج إلى مجلدات إلا أننا سنحاول هنا تقسيم هذا الموقف إلى فقرات لكي يسهل الاطلاع عليها:

أ – قولهم بأن النبي محمد ﷺ ليس نبيٌّ مرسل:

يكاد يؤمن عموم المستشرقين بأن محمد ﷺ هو ليس نبي مرسل وان القرآن الكريم

---

(1) ينظر د. عبد الجبار ناجي، الاستشراق والسنة النبوية (مجلة دراسات إسلامية بيت الحكمة بغداد،– 200) ع/ السنة الأولى م100 – 101.

من عنده ولا يُقِرُّون بأن القرآن مصدره من عند الله ﷺ وهكذا يفترون على الله الكذب بل ذهب بعضهم إلى القول بأن محمداً ﷺ لم يسمع بالوحي وهذا ما ذهب إليه المستشرق كارل بروكلمان حيث يقول: «حتى اعلن [أي الرسول ﷺ] ما ظن انه قد سمعه كوحي من الله تعالى[1]. ويسوق لذلك قولًا آخر (وهكذا نضجت في نفسه الفكرة أنه مدعو إلى اداء هذه الرسالة رسالة النبوة، ولكن حياءه الفطري حال بينه وبين إعلان نبوته فترة غير قصيرة»[2]. ويضيف هذا المستشرق فرية أخرى جديدة حتى وصل به الحد إلى الادعاء بأن ما جاء به محمد ﷺ هو نتيجة صلاته بالرهبان الذي كان يلتقي بهم اثناء رحلاته إلى سوريا في تجارة قريش إلى الشام فهو يقول: «وتذهب الروايات التأريخية إلى انه اتصل في رحلاته ببعض اليهود والنصارى اما في مكة نفسها فلعله اتصل بجماعات من النصارى كانت معرفتهم بالتوراة والإنجيل هزيلة إلى حد ما»[3].

ب - قولهم كذباً وزوراً بأن النبي ﷺ كان مصاباً بالصرع:

اتهم المستشرقون الرسول محمد ﷺ زوراً وبهتاناً بأنه كان مصاباً بمرض الصرع[4]. وهو الاتهام الذي لم يتهم به عليه الصلاة والسلام في عصر الرسالة حتى من قبل اشرس أعدائه من مشركي مكة والعرب.

وعلى الرغم من أن هذا الاتهام كان قد أشاعه الأوائل من البيزنطيين وعلى رأسهم

(1) ينظر تاريخ الشعوب الإسلامية، 36.

(2) ينظر تاريخ ، 35.

(3) ينظر تاريخ، 34.

(4) الصرع: مرض يصيب الجهاز العصبي ويميزه فقدان الوعي وكذلك التقلصات، ويبدأ عادة في الطفولة والمصابون به هم أشخاص انفعاليون ومهيأون للتقوقع بعيداً عن الدنيا والعيش في الأوهام. ينظر:

Epilesy - New Medical dictionary.
Short Encyclopaedia of islam p 393 by H.A.R Gibb and U. H Kramers word (Muhammad)1971 E. J Brill Leden Luzac p 26.

(ثيوفانيس) ثم شاع هذا الادعاء بعد ذلك بين عموم الغربيين حتى العصر الحديث. وتلقف المشركون هذه الفرية وأشاعوها بين مواطنيهم وهذا المستشرق (آرفنينج) يؤكد هذه الفرية عندما يصرح ويقول: «عندما بدأت الرسالة المحمدية كان محمد يتعرض لأحلام في عزلته في الغار، اعقبها حالات من فقدان الوعي الذي أقلق خديجة [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا] التي كانت تلحقه في وحدته لتقوم بشأنه وحيث كانت تبحث معه عن أسباب ذلك فكانت لا تجد الا مزيداً من الغموض»[1].

وأما المستشرق نولدكه[2]. والذي لا يقل في عداوته عن زملائه للإسلام ورسوله فهو جمع في مقولته التهمتين معاً فيقول: (إن سبب الوحي النازل على محمد ﷺ والدعوة التي قام بها هو ما كان ينتابه من داء الصرع)[3].

ج - وقولهم الفاسد الباطل بأن محمد ﷺ كان مصاباً بالهستيريا[4]:

سعى أقطاب الحركة الاستشراقية وبكل طريقة ووسيلة أتيحت لهم إلى اتهام الرسول

(1) ينظر لأرفينج، محمد وخلفاؤه، ترجمة د. هاني يحيى ط(الدار البيضاء:1999) 115 - 116، علي شاهين، دراسات في الاستشراق، ط(دار البناء:1992) 135 - 136.

(2) نولدكه مستشرق الماني حاقد على الإسلام ورسوله ذو باع طويل بالاستشراق اعماه حقده على ادراك الحقيقة فذهب يكيل التهم للرسول محمد ﷺ بكل اسلوب وطريقة شغل العديد من المناصب العلمية والادارية ينظر العقيقي، المستشرقون 27/ 379.

(3) ينظر العقيقي، المكان نفسه.

(4) الهيستريا: مرض عقلي يصيب المعتلّي الأعصاب والمضطربين التكوين وسببه كبت الشخصية لرغباته الجنسية في اللاشعور حيث لاتهدأ هذه الرغبات بل تتجرد حتى تجد لها متنفسا عن طريق آخر. وللمرض أعراض عضوية وعقلية، أما العضوية مثل تشنج العضلات وشلل الأطراف والعمى والصمم والقيء والرجفة وضياع الصوت وفقد الاحساس. اما الاعراض العقلية فهي فجوات في الزائدة والمشي ليلاً ومهاجمة الآخرين والغيبوبة وتوهم رؤية اشياء أو سماع أصوات ليس لها وجود. وتظهر اعراض هذا المرض أو الحالة كنوع من الخلل اللاشعوري لمشكلته الحقيقية، ينظر معالم علم النفس، 162.

محمد ﷺ بكل ظلالة قدروا عليها سعياً منهم إلى ترويج زيوفهم وأقوالهم الباطلة بحق الرسول الخاتم محمد ﷺ، وخرجوا بفرية باطلة وقالوا ان محمداً ﷺ كان مصاباً بالهستيريا وعلى رأس هؤلاء المستشرقين (شبرنجر) الذي يرى أنها (أي الأعراض) ليست بنوبات صرع كما ذهب زملاؤه بل هي نوبات هستيرية اشتهرت باسم (شوتلاينر) ويتفق معه في هذه الفرية زميله المستشرق(سنوك هور جرونجيه) ويذهب هذا الكافر الحاقد ويقول (لكنه يقر بأن قيمة محمد ﷺ تتمثل بما يتميز به من سائر الهستيريين)[1].

د - وقولهم الفاسد بأن النبي محمد ﷺ مصاب بالهلوسة:

لم ينل نبي ولا رسول مرسل من الله تعالى من الأذى وإلصاق التهم به، كما نال نبينا محمد ﷺ فلقد تساوت الأقلام الكافرة والمأجورة في اتهامه عليه الصلاة والسلام بكل انواع التهم ونعته بكل الأوصاف السلبية وهذه التهم كسابقاتها من التهم الجوفاء الباطلة وأنها إن دلت فإنما تدل على الحقد والكره والإساءة المقصودة لشخص الرسول محمد ﷺ.

ولم يعرف العلم والطب معنى الهلوسة بشكل دقيق وعليه أصبح لها مدلول مطاطي فهي تشمل الهوس والوسواس، إلا أنه يعتقد بأنها عادة تنشأ عن اضطراب عقلي ويعتقد المريض به انه يرى أو يسمع أو يذوق أو يشم أو يلمس الأشياء التي ليس لها وجود إلا في مخيلته[2].

ومن الذين ألصقوا هذه الفرية بالرسول محمد ﷺ المستشرق (لوبون) والذي حظيت مؤلفاته بنوع من الارتياح عند عموم الأوروبيين، ومن المعلوم أن الغربيين يتفقون مع كل ناعق منهم يفضلون ويباركون كل من يسيء للرسول محمد ﷺ ويعادون كل من يحاول أن يبصرهم بالحقيقة ولو حتى كان من بني جلدتهم ويقول لوبون (يجب عد محمد من فصيلة

---

(1) ينظر د. محمد عبدالفتاح عليان، اضواء على الاستشراق، ط(د/ م:1980)79.

(2) ينظر معالم علم النفس، 167، غوستاف لوبون، حضارة العرب، 133.

المتهوسين من الناحية العلمية كما هو واضح وذلك فأكثر مؤسسي الديانات فأهل الهوس وحدهم لا ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين ينشئون الديانات، ومن يبحث في عمل المفتونين في العالم... وكان يجد محمد في هوسه ما يحفزه إلى اقتحام كل عائق)[1].

إن هذه الافتراءات التي ألصقت بالرسول محمد ﷺ ما هي إلا تعبير عن حقد دفين وعميق في نفوس هؤلاء المستشرقين والذين اتخذوا من القرآن الكريم وشخصية الرسول ﷺ وسيلة للتشكيك والتشويه.

إلا أننا نقول يجب على المسلمين كافة في مشارق الأرض ومغاربها أن يعوا خطر هؤلاء المستشرقين ويتعرفوا على أساليبهم في المكر والخداع وألا يقعوا في حبائلهم وألا ينساقوا وراءهم مهما ادعوا أن عملهم هذا يتم باسم العلم والمنهج والموضوعية فهم لايريدون بالمسلمين خيراً ابداً مهما قالوا ومهما ادعوا. ويكفي المسلمين فخراً وعزاً ورفعة وشموخاً من بين الأمم ان يكون دينهم الإسلام ورسولهم محمد ﷺ، وقد ارق هؤلاء الكفرة والملاحدة منذ قرون عديدة ولا زالوا ولايعرفون كيف يتصدون له فهم كذبوا وشككوا وأساؤوا إلا أن عملهم هذا سوف لا يزيد الإسلام ورسوله إلا رفعة وسمواً بين الأمم والاديان والانبياء وهذا ما تقره الحقائق والوقائع فلا مؤلفاتهم نفعت ولا تلاميذهم شفعت ولا وسائل الإعلام نجحت فكلها في مزبلة التاريخ تترك.

3 – موقفهم من السنة النبوية الشريفة:

كان موقف عامة المستشرقين العدائي للأحاديث النبوية لا يقل عن موقفهم العدائي من القرآن الكريم، في الوقت الذي نرى أن السنَّة النبوية بالنسبة إلى المسلمين كانت ولا زالت تمثل المصدر التشريعي الثاني لهم بعد القرآن الكريم فلقد استندوا إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: 7]، وهكذا اصبحت هذه الحقيقة

(1) ينظر: غوستاف لوبون، المكان نفسه.

بالنسبة إلى المسلمين من بديهيات الامور فالمصدر التشريعي الاساسي هو كلام الله عَزَّوَجَلَّ المنزل في القرآن الكريم ثم سنة الرسول محمد ﷺ وبذلك قطع المسلمون صلتهم بالجاهلية عقيدةً وقولاً وعملاً قائما على العلم واصبح تبعاً لذلك الكتاب والسنة مرشدين للعالم الإسلامي افراداً وجماعات وشعوباً وحكومات، يستهدي بهم جميع من هدى الله في كافة الشؤون.

واستمر المسلمون أقوياء أعزاء ما استمسكوا بهذين الأصلين في تعاملهما على المستويين الفردي والجماعي واستمر الوضع هكذا لقرون طويلة حتى دبَّ الوهن والكسل في المسلمين وزاد الانحراف عن هذين الأصلين الاساسيين وكان من نتيجة ذلك ان دب الضعف العسكري عند المسلمين وحدث الانهيار السياسي وساد الفقر وتدهور الاقتصاد وانتشر المرض وسادت الخرافة والشعوذة مما استتبع ذلك سيطرة الاستعمارعلى البلدان العربية والإسلامية الواحدة تلو الأخرى وذاق المسلمون في اكناف المستعمرين شتى انواع الذل والهوان(1).

وكان من الطبيعي أن يسعى الغرب بكافة مؤسساته السياسية والدينية إلى العمل على الغاء العمل بالشريعة الإسلامية في البلدان العربية والإسلامية كافة فكان لا بد له أولاً التشكيك في مصادرها والطعن في صلاحياتها، وحتى لايفكر المسلمون قاطبة في العودة اليها يوماً ما ثانياً(2).

ومن هنا جاءت اهتمام الحركة الاستشراقية بالسنَّة النبوية لذا سخرت العديد من المستشرقين للعمل على دراستها فلقد تعدى اهتمام هؤلاء بالسنة اهتمامهم بالقرآن الكريم والذي بذلوا في دراسته قروناً طويلة ثم جاءت الدور على السنة النبوية الشريفة فعكفوا

(1) ينظر محمد مصطفى الأعظمي، السنة النبوية وروايتها (المستشرق)1 / 66.

(2) ينظرالاعظمي، المكان نفسه.

عليها بالدراسة والتحليل والجمع والمقارنة ليس من أجل إثبات صحتها وحقيقتها ودورها في تطوير الشرع الإسلامي بل من أجل طمس هذه الميزات فلقد درسوا الأحاديث النبوية على اعتبار انها مذكرات شخصية للرسول ﷺ أو تعاليم دينية شفوية بلا ضبط مما أدى إلى تشويه فهمهم لنصوص الحديث النبوي وثقتهم برجاله ورواته، وكان غالبية هؤلاء المستشرقين لايفرقون بين التدوين العام وبين كتابة الحديث وهو الذي اوقعهم في اخطاء جسيمة وأما نظرتهم لرواة الحديث فهي نظرة كره وحقد كبير إذ كرسوا بحوثهم ودراساتهم ومؤلفاتهم ومحاضراتهم على بعض الاجلاء من كبار الحفاظ وائمة الحديث فعمدوا على تشويه سيرتهم والطعن في ولائهم والصقوا بهم تهم ما ليس فيهم كأبي هريرة وابي حنيفة (رضي الله عنهم اجمعين)[1].

ومن أبرز الذين درسوا السنة النبوية من المستشرقين وعمل على رفضها كمصدر تشريعي ثانٍ للمسلمين المستشرق (شاخت) فتناول هذا المستشرق هذا المصدر الإسلامي العظيم في العديد من مؤلفاته مما يدل على حقده الدفين للإسلام ورسوله، ومما قاله (ما يسمى بالفقه الإسلامي ليس هو الفقه الإسلامي المبني على كتاب الله وسنة رسوله الله، لأنه لايوجد ما يمكن تسميته سنة النبي ﷺ بل ان جزءاً غير قليل من فقه السنة مأخوذ من شرائع اليهود والكنيسة وديانات أخرى عدا اجتهادات المجتهدين[2].

وهناك عددٌ آخر قالوا ما قال المستشرق (شاخت) ورفض القول أن الفقه الإسلامي مبني على السنة النبوية إلا أن هذا لم يمنع غيرهم من التصدي لهذه الآراء والقول بعكس قولهم، وهذا المستشرق (فنسنك) كان من المتصدين لزملائه من المشككين ويعد من خيرة من درس الحديث النبوي وصفته فأظهر الدور الذي قام به علماء الحديث ورواته وإجادتهم لنقله وتحقق هو من شروط العدالة والضبط فيهم فأجاد وأفاد وصدق رسول الله ﷺ عندما

(1) ينظر البهي، الفكر الإسلامي، 182، السباعي، السنة، النبوية، عدة أماكن.

(2) Schacht, Foreign Elements in Aucient Islamic Law Journal comparative Legislation and international Law vol xxx ll (1950) partsill. lv pp 217.

قال (إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر).

فموضوع الكتابة الاستشراقية في السنة النبوية (الحديث النبوي) كأحد مصادر التشريع الإسلامي كان موضوعاً مستهدفاً عند أغلب المستشرقين لأنهم علموا ان الحديث النبوي له مراتب تبدأ بالصحيح الوارد في البخاري وهو أصح الكتب من بعد القرآن الكريم ثم صحيح الإمام مسلم (رضي الله عنهما) ثم كتب الأسانيد ولقد توصلوا إلى الأحاديث الموضوعة والمعروفة لدى علماء المسلمين كافة من قبل فهم علموا أن الحديث النبوي لا يحتمل درجة القطع والوثوق التي تحيط بالنص القرآني.

غير أنهم أفادوا كثيراً من كتب الموضوعات وعدلوا أحاديثها ونقلوها واستندوا اليها وكأنها في غاية الصدق والصحة والضبط علاوة على عبثهم وتحويرهم لمعاني الأحاديث الصحيحة.

فهذا الهامش في المرونة في شأن الحديث النبوي دفعهم إلى عقد العزم لإيلاء الحديث أهمية خاصة عله يكون مطيتهم في الوصول إلى تحقيق غاياتهم في فصل المصدرين الاساسيين كل على حدة، حتى لا يعرف المسلمون عندها إلى أين يتجهون.

وعن منهجهم في التعامل مع الأحاديث النبوية الشريفة فإن النظر عندهم يتجه إلى المتن وحده غير عائبين بالسند ولايكترثون بقوته أو ضعفه. «إذا عثروا على حديث يصلح دعامة لفكرة يريدون نشرها أو تقويتها أو الاعتماد عليها في أمرها»[1].

فاعتبار المتن دون السند يؤدي إلى افحش شذوذ يمكن ان يقع فيه البحث العلمي إذا كان المراد صحة النتائج وثبات النظريات وسلامة الاسس. إلا أن التحرر من هذه القيود الحديثة في تقويم الأحاديث النبوية يسلب من البحث العلمي صفته ويلحقه بالتفكير

(1) ينظر د. إبراهيم محمد، المستشرقون والإسلام، 53 – 55.

العامي[1].

واخيراً نقول لماذا هذه الحرب الشعواء على السنة النبوية ولماذا هذا التحامل عليها مع إدراكهم انها حقيقة ناصعة لا تشوبها شائبة؟

هم أدركوا تماماً مدى عمق السنة النبوية في القواعد التشريعية عند المسلمين كافة فهم لم يقدروا أن يثبتوا بأن القرآن الكريم داخله التحريف أو التغيير في حين تمكنوا من السنة النبوية فتجرؤوا عليها ثم انه كان من اللازم لدى المستعمرين الذين حاربوا الإسلام ورسوله محاربة السنة النبوية الشريفة بكل قوة وجرأة لأنه بأبعاد السنة النبوية والتشكيك بها وفي مكانتها من التشريع الإسلامي يصبح عند ذاك التشكيك بالقرآن الكريم امراً ميسوراً.

ومن أجل أن يحقق الاستعمار أهدافه في البلاد والتي استعمرها عمل على ايجاد طبقة من الموالين له والمثقفين بثقافته عملت على إنكار جزءٍ من السنة النبوية مبتدأً بإنكار احاديث القتال والسيف وصولاً إلى إنكار السنة النبوية بكاملها في المستقبل القريب البعيد وهكذا اصبحت الحرب قائمة على السنة النبوية من الداخل ومن الخارج ففي الداخل جيش من الموالين لثقافة الغرب الذين عدوا انفسهم متنورين ومن الخارج طلائع المستشرقين والمبشرين ويحظى عمل هؤلاء جميعاً بالدعم الاعلامي وتسهيل سبل النشر والدعم المالي مما يكفل له النمو والاستمرار في ربوع العالم الإسلامي[2].

4 - موقفهم من السيرة النبوية:

إن الحديث عن موقف المستشرقين من السيرة النبوية لايختلف عما انتهجوه في عموم الدراسات الإسلامية والتي سبق أن تم الحديث عنها بإسهاب كبير.

---

(1) ينظر د. ابراهيم، المكان نفسه.

(2) ينظر الاعظمي، 67.

غير أننا نقول هنا أنه لا بد من استعراض المنهج الإسلامي في دراسة السيرة النبوية وقبل الحديث عن منهجهم في ذلك لقد حدد أحد الباحثين المعاصرين المنهج الإسلامي في دراسة السيرة النبوية بأنه يقوم على ثلاث دوائر أو قواعد وأن افتقار أو تهديم واحدة منها قد يلحق ضرراً كبيراً في دراسة السيرة النبوية وهي كما يلي:

1. الدائرة الأولى: الايمان أو على الأقل احترام المصدر الغيبي لرسالة النبي محمد ﷺ وحقيقة الوحي الذي تقوم عليه.

2. الدائرة الثانية: اعتماد موقف موضوعي بغير حكم مسبق يتجاوز الاسقاطات التي من شأنها ان تعرقل علمية الفهم.

3. الدائرة الثالثة: تقنية صرفة تقوم على ضرورة الاحاطة جيداً بأدوات البحث العلمي التأريخي بدءًا باللغة وجمع المادة الاولية وانتهاءً بطرائق المقترنة والموازنة والنقد والتركيب[1].

فإذا كان هؤلاء المستشرقون سواءً العاملين منهم في الغرب أو الشرق قد بلغوا حدّ التمكن والإبداع في استخدام التقنية في أبحاثهم أو لموجودات تأريخهم فانهم فشلوا فشلاً ذريعاً في أن يقدموا أعمالاً علمية بمعنى الكلمة لواقع السيرة النبوية ولا قدروا حتى على حد الاقتراب من حافة الفهم لها لأنهم كان يعوزهم التعامل الأكثر علمية مع الدائرتين الأولى والثانية القائمة على احترام المصدر الغيبي واعتماد الموقف الموضوعي الخالي من التعصب والمغالاة ولبيان خرقهم لهاتين الدائرتين في أبحاثهم نورد فيما يأتي بعضاً من آرائهم الحقيقية في شخصية الرسول ﷺ والإسلام كدين:

إن موقف الأوروبيين في عموم أوروبا وغيرها من البلدان شرقية كانت أم غربية وتلك

(1) ينظر عمادالدين خليل، بحث منشور في مجلة منهاج المستشرقين، 1985، 1/ 116.

التي لا تدين بالإسلام من الرسول محمد ﷺ كدين يتشكل في إطار ديني صرف ناجم عن التعصب والتشنج والانفعالات مليء بالحقد والكراهية تحيطه جهالة عمياء متعمدة حيناً وغير متعمدة حيناً آخر، جعلت بين العامة منهم والخاصة وبين شخصية الرسول ﷺ سداً عظيماً يصعب اختراقه.

جاء هذا الموقف المتشنج والمتعصب ضد الرسول ﷺ لكون معظم الدراسات والابحاث التي قام بها المستشرقون عن السيرة النبوية قامت من خلال الكنيسة والتي جاءت عبارة عن سيل منهمر من الشتائم والسباب والقذف مارسها رجال علمانيون وملحدون لا علاقة لهم بالكنيسة لا من قريب ولا من بعيد وقد استمر هذا التيار الفاسد حتى الوقت الحاضر يمارس عمله المعادي للإسلام ولرسوله، وكان من نتيجة ذلك الخوف والرعب من الإسلام ورسوله ثم الحقد عليهما.

فتحامل عموم المستشرقين على الإسلام ورسوله غريزة موروثة وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلقتها الحروب الصليبية بكل ما لها من ذيول في عقول هؤلاء الغربيين[1].

ومما يدل على صحة ما ذهبنا إليه آنفا ما يقوله العديد منهم فهذا المستشرق كولي (لقد برز عدوّ في الشرق جديد هو الإسلام الذي أُسِّسَ على القوة وقام على أشدّ انواع التعصب. ولقد وضع محمد السيف في أيدي الذين تبعوه وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق وثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب وعد الذي يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات في الجنة)[2].

اما المستشرق المسيوكيمون فيقول: «إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ

(1) ينظر البهي، الفكر الإسلامي ، 521 – 522.

(2) ينظر البهي، الفكرالإسلامي، 517.

يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هو مرض مروع وشلل عام وجنون ذهني يبعث الإنسان على الخمول والكسل ولايوقظه منها إلا ليسفك الدماء ويدين من معاقرة الخمور»[1].

وهذا المتحذلق لويس براون يعترف صراحة ويقول: «إن الإسلام كامن في نظافته وفي قدرته على التوسع والاخضاع وفي حيويته انه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار»[2].

وأخيراً يقول احدهم مخاطباً الغربيين عامة: «إن شيئاً من الخوف يجب ان يسيطر على العالم الغربي، ولهذا الخوف أسباب منها ان الإسلام منذ أن ظهر في مكة لم يضعف عدداً كان دائماً في ازدياد واتساع ثم إن الإسلام ليس ديناً فحسب بل إن من أركانه الجهاد ولم يتفق أن شعباً دخل الإسلام ثم عاد نصرانياً»[3].

على الرغم مما قيل بأن التيار المتعصب الذي حمل لواءه الجيل الأول من هؤلاء المستشرقين قد انتهى بعد عصر التنوير وانفصال الدين عن الدولة إلا أننا نرى أن الجيل الجديد منهم من الذين عنوا بالدراسات الإسلامية عامة والسيرة النبوية خاصة وعلى الرغم من أنهم مدنيون ولا تربطهم بالكنيسة رابطة وكان من المفروض وهم وعدوا بأن تقوم دراساتهم الجديدة على منهج جديد لدراسة السيرة النبوية وانه كان تبعاً لذلك أن نتوقع أن يخففوا من حملاتهم على الإسلام ورسوله وأن تتغير نظرتهم تبعاً لهذا المنهج الذي ادعوا بأنه سيستخدم في دراسة السيرة النبوية تاريخاً وتعاليم. إلا أن الذي حصل لا يعدو عن التشذيب والتهذيب وتجاوز كلمات الفحش والسباب والشتائم فالمنهج هو المنهج جهلاً بتركيب السيرة النبوية وتعصباً أعمى في التعامل معها وتحليلات واستنتاجات ما أنزل الله بها من سلطان يؤكدها الواحد منهم تلو الآخر ويجمعون عليها حتى لتكاد تعد عندهم يقيناً

---

(1) ينظر خليل، منهاج، 1/ 127.

(2) ينظر لويس براون، الإسلام والإرسالیات، 44 – 48.

(3) ينظر عمر فروخ، التبشير والاستعمار، طـ 4 (بيروت: 1975) عدة أماكن.

من اليقين على الرغم من أنها بنيت أساساً على الوهم يستحيل معه رؤية الحقائق بجمعها الطبيعي، فعلى الرغم من أنها انبعثت من زاوية مترعة بالتعصب ونظر اليها عبر منظار قد دخن عليه سلفاً وعلى الرغم من أنها في احسن الاحوال قد بنيت على شواهد تأريخية ولكنها ليست بحال من الاحوال والشواهد المتواترة ذات الثقل وإنما هي الشاذ والغريب الذي يتشبثون به لكونه يجاري أهواءهم وأهدافهم ويماشي مصالحهم في النيل من المسلمين ورسولهم ويرضي حقدهم الاسود الدفين ويلبي حاجاتهم الدينية والسياسية الاستعمارية في الوطن العربي والعالم الإسلامي»[1].

من خلال هذا الاستعراض السريع لواقع حركة الاستشراق ورجالها والاطلاع على مواقفهم العلنية والصريحة من الإسلام ورسوله لا بد لنا الآن من بيان منهجهم في دراسة السيرة النبوية والذي قام على عدة ركائز وهي:

1. العمل بكل جهد لرد معطيات السيرة وتفاعلها إلى اصول غير إسلامية.
2. اسقاط الرؤى العلمانية والتأثيرات البيئية المعاصرة على احداث السيرة النبوية.
3. التشكيك والمبالغة والنفي الكيفي والافتراض المتعمد.
4. التركيز على الشاذ والضعيف من الروايات التأريخية.

1 - العمل بكل جهد لرد معطيات السيرة وتفاعلها إلى أصول غير إسلامية:

إن هذا التصور يكاد يأخذ برقاب المستشرقين كافة ويضع بصماته الواضحة على مناهجهم في التعامل مع وقائع السيرة النبوية وظاهرة النبوة[2]. حيث إن معظم هؤلاء المستشرقين من النصارى وهم من طبقة رجال الدين أو من المتخرجين من كليات اللاهوت

---

(1) ينظر توفيق الحكيم، تحت شمس الفكر، ط (القاهرة: د/ ت)18 - 25.

(2) ينظر جواد علي ، تاريخ العرب في الإسلام د/ ط (بغداد: 1961)1/ 49 - 50.

التي تمولها الكنيسة فهم عندما يتطرقون إلى الموضوعات الحساسة في الإسلام يحاولون جهد امكانهم ردها إلى اصول نصرانية وطائفة أخرى منهم من اليهود نجدهم يجهدون انفسهم لرد كل ما هو عربي أصيل لأصل يهودي أما العلمانيون فهم يحاولون إرجاع هذه الاصول إلى اليونانية أو الاغريقية أو حتى بيزنطية واذا لزم الأمر جعلوها فارسية وهكذا فجميع هؤلاء على اختلاف مناهجهم ومشاربهم في هذا الباب يتبع سلطان العواطف والأهواء[1].

ومن هنا يتبين لنا مقدار الخطأ والمجازفة التي ترد في أبحاث هؤلاء المستشرقين في وصف الإسلام ورسوله وانظمته بعدم الأصالة والاستقلالية، وحتى قال البعض الآخر منهم ان الإسلام في انظمته متأثرا بالقوانين الرومانية أو هو فرع مشوه من اليهودية والمسيحية بل ذهب فريق آخر إلى القول بأن الإسلام وانظمته هو القانون الروماني بلباس عربي. وهكذا حاولوا بدعواتهم البعيدة عن الموضوعية في البحث العلمي مجانبة الحق والصواب والتي تعلن بصراحة عن جهل وحقد ومكابرة قائليها بحقيقة الإسلام وأصوله.

2 - إسقاط الرؤى العلمانية والتأثيرات البيئية المعاصرة على أحداث السيرة النبوية:

يكاد يكون من المستحيل أو المتعذر أن يتجرد المستشرقون عن عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة، وانهم لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة الرسول ﷺ وصحابته مبلغاً يغشى على صورتها الحقيقة من شدة التحريف فيها وبرغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمي الجاد، فإنا نجد من خلال كتاباتهم أن محمداً ﷺ يمثل كل الجنسيات الأوروبية وحسب جنسية المستشرق الذي يكتب في السيرة النبوية.

ويتحدث أستاذنا الدكتور جواد علي عن دور واحد من كبار المستشرقين وهو (كيتاني) من الذين كتبوا عن حياة الرسول ﷺ حيث كان هذا المستشرق يعتمد منهجاً معكوساً في

---

(1) ينظر جواد علي، المكان نفسه.

البحث يذكرنا بكثير من المختصين بحقل التأريخ الإسلامي والذين يعملون وفق منهج خاطئ من أساسه إذ هم يبيتون فكرة مسبقة ثم يعمدون إلى وقائع التاريخ لكي يستلوا منها مايؤيد فكرتهم ويستبعدوا ما دون ذلك فلقد كان كيتاني إذا رأى فكرة وضع رأيه وكونه في السيرة قبل الشروع في تدوينها فإذا ما شرع بها استعان بكل خبر من الاخبار ظفر به ضعيفها وقويها ويمسك بها كلها ولاسيما ما يلائم رأيه ولم يبالِ بالخبر الضعيف بل قوّاه وشدّه وعدّه حجة وبنى حكمة عليه ومن يدري فلعله كان يعلم بسلاسل الكذب المشهورة والمعروفة عند العلماء ولكنه عفا وغضّ نظره عن اقوال أولئك العلماء فيها لأنه صاحب فكرة يريد اثباتها بأي طريقة كانت وكيف يتمكن من اثباتها واظهارها وتدوينها إذا ترك الروايات وعالجها معالجة نقد وجرح وتعامل معها على أساس البحث الحديث[1].

إن الطابع العلماني الموضعي والرؤية المحدودة للمناهج الغربية في تعاملها مع تأريخ الإسلام، اوقع العديد منهم في خطأ آخر هو اعتقادهم ان الرسول ﷺ لم يخطُ خطوة واحدة وهو يعلم مسبقاً ما الذي يليها. أي أن نشاطاته كانت توحي بها الظروف الراهنة ومتطلباتها ولوازمها وهذا ما ذهب إليه العديد منهم وعلى سبيل المثال المستشرق (فلهوزن) «الذي وصف الدعوة الإسلامية في عصرها المكي بأنها كانت إقليمية وأنها لم تنتقل إلى المرحلة العالمية في العصر المدني إلا بعد أن أتاحت لها الظروف ذلك ولم يكن الرسول محمد ﷺ ليفكر بذلك من قبل»[2].

3 - التشكيك والمبالغة والنفي الكيفي والافتراض المتعمد:

إن هذا المبدأ يكاد يكون القاسم المشترك في مناهج عموم المستشرقين في معرض

---

(1) ينظر جواد علي، تاريخ، 1/ 95 - 96.

(2) ينظر يوليوس فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط2 (القاهرة: 1986) 4 - 5.

كتاباتهم عن الرسول محمد ﷺ ودعوته إلا قليلاً منهم. فالعامة منهم يمضون مع شكوكهم إلى ابعد مدى ويطرحون افتراضات لا رصيد لها من الواقع التأريخي بل إنهم ينفون العديد من الروايات لهذا السبب أو ذاك بينما نجدهم يتشبثون بالمقابل بكل ما هو ضعيف أو شاذ لقد غالوا كثيراً في كتاباتهم عن السيرة النبوية وأجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك حتى في وقائعها المثبوتة فهم أثاروا الشك حتى في اسم الرسول محمد ﷺ فمثلاً نجد المستشرق (شبر نكر) يرى أن اسم محمد ورد في أربع سور من القرآن الكريم وهي آل عمران - الأحزاب - محمد - الفتح وكلها سور مدنية ومن ثم فإن لفظة محمد لم تكن اسم علم للرسول ﷺ قبل الهجرة. وإنما اتخذه بتأثير قراءته للإنجيل واتصاله بالنصارى واذا كان الرسول محمد ﷺ قد التقط هذا الاسم خلال قراءاته للإنجيل فأين ذهب محمد الحقيقي الذي بشر به العهد القديم والجديد فأي إفك هذا يفترون؟ والله لو تمكن هؤلاء المستشرقون الحاقدون لأثاروا الشك حتى في وجوده عليه الصلاة والسلام ولكنهم مهما قالوا في شبهة التاريخ الصحيح في سيرة الرسول ﷺ فإن سيرته هي اوضح سيرة لنبي واطول سيرة لرسول من بين جميع الأنبياء والرسل[1].

وطالما كان الحديث في هذه الفقرة عن التشكيك والنفي الاعتباطي للروايات ذات العلاقة بالسيرة النبوية، لا بد أن نتذكر العبارة التي قالها واحد من أبرز باحثيهم وهو المستشرق (مونتجمري وات) والذي عد نفسه أنه اتبع المنهج العلمي في معالجة احداث السيرة النبوية فبهذا الصدد نجده يقول: «إذا أردنا أن نصحح الاغلاط المكتسبة من الماضي بصدد محمد ﷺ فيجب علينا في كل حال من الحالات التي يقوم الدليل القاطع بصدها أن نتمسك بصلابته وبصدقه ويجب ألا ننسى أيضاً أن الدليل القاطع يتطلب قبوله أكثر من كونه ممكناً وأنه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه»[2].

---

(1) ينظر جواد علي، المكان نفسه.

(2) ينظر مونتجمري وات، محمد في مكة، تعريب شعبان بركات، 1956، 94.

وعند استقرائنا لبحوث ودراسات العديد من هؤلاء المستشرقين وجدنا العشرات بل المئات من الشواهد على النفي الكيفي الذي مارسه هؤلاء وبخاصة الاوائل منهم في تعاملهم مع وقائع السيرة النبوية.

فالمستشرق كارل بروكلمان في معرض حديثه حول اسلوبه في التشكيك والنقض الكيفي يشير إلى دور اليهود السلبي في تأليب قريش وحلفائها على المدينة ولايشير إلى نقض يهود بني قريظة عهدهم مع رسول الله ﷺ في اشد ساعات محنته، إلا أنه يقول (ثم هاجم المسلمون بني قريظة الذين كان سلوكهم غامضاً على كل حال)[1].

أما زميله المستشرق ولفنسون والذي لا يقل في عداوته للمسلمين عنه يشير بصدد مهاجمة الرسول ﷺ ليهود بني النضير إلى أن مؤرخي العرب قالوا بأن سبب اعلان الحرب من قبل الرسول ﷺ على يهود بني النضير جاء بسبب محاولتهم اغتيال الرسول ﷺ ويؤكد أن جميع المستشرقين ينكرون صحة هذه الرواية ويستدلون على عدم صحتها بعدم وجود ذكر لها في سورة الحشر التي نزلت بعد إجلاء بني النضير[2].

4 - التركيز بصورة عامة على الشاذ والضعيف من الأخبار:

لم يكن الشاذ والنفي الكيفي الاعتباطي وحدهما معتمدين في اساليب المستشرقين في دراسة السيرة النبوية بل الاعتماد على الروايات الضعيفة والشاذة والتي لا تصمد أمام النقد فهم يحاولون جاهدين الأخذ بالخبر الضعيف في بعض الأحيان وحكموا بموجبه واستعانوا بالشاذ والغريب فقدموه على المعروف المشهور... وهم استعانوا بالشاذ الضعيف ولو كان متأخراً أو كان من النوع الذي استغربه النقد وأشار إلى نشوزه. تعمدوا ذلك لأن هذا الشاذ

(1) ينظر تاريخ الشعوب الإسلامية، 53 - 55.

(2) ينظر ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، ط (القاهرة: 1927)135 - 136.

هو الأداة الوحيدة في إثارة الشك[1].

ولتوضيح منهجهم في تطبيق ذلك المبدأ في دراسة السيرة النبوية نسوق ما ذكره وات في كتابه محمد في مكة والذي عد نفسه في مقدمة الكتاب بأنه باحث علمي ومستقيم فهو يحدثنا هنا عن نفسه فيقول:

«وأقول لقرائي المسلمين شيئاً مماثلاً فقد ألزمت نفسي برغم إخلاصي لمعطيات العلم التأريخي المكرّس في الغرب ألا أقول شيء يمكن أن يتعارض مع معتقدات الإسلام الأساسية»[2].

لنرى كيف ان وات لايعارض المبادئ الأساسية للمسلمين وذلك باسم البحث العلمي المنهجي يقول: «نلاحظ واقعتين نستطيع أن نعدهما أكيدتين:أولاً رتل محمد في وقت من الأوقات الآيات التي أوحى بها الشيطان على أنها جزء من القرآن لأنه لا يمكن أن تكون القصة قد اخترعها مسلمون فيما بعد أو دسّها غير المسلمين ثم أعلن محمد فيما بعد أن هذه الآيات يجب ألا تعد جزء من القرآن ويجب استبدال آيات بها تختلف عنها كثيراً في مضمونها والروايات الأولى لا تحدد الوقت الذي حدث فيه ذلك والأقرب أن يكون ذلك قد وقع بعد بضعة أسابيع أو أشهر وهناك واقعة ثانية أو مجموعة وقائع نستطيع أن نكون واثقين منها وهي انه كان يجب على محمد ومعاصريه أن يشيروا في القرآن للآلهة اللات التي كانت معبودة الطائف والعزى المعبودة في نخلة قرب مكة ومناة التي كان معبدها بين مكة والمدينة ما تعنيه هذه الآيات الإبليسية أن الاحتفالات مقبولة في المعابد الثلاث حول مكة واما معنى الآيات تقول بأن العبادات في هذه المعابد غير مقبولة فهي لاتحترم العبادة في مكة (ويضيف هذا المتحذلق بالعلم والمنهج فيضيف) ويجب أن نعترف بأن الآيات التي صححت سورة

---

(1) ينظر وات، محمد، 66.

(2) ينظر وات، المقدمة.

النجم تمجد الكعبة على حساب المعابد الأخرى إلا إذا افترضنا وجود آيات أخرى كانت تحترم ذلك ثم رفعت فيما بعد من القرآن ولكن ليس لدينا أي سبب يمكن الأخذ به ومن المهم أن نتذكر بهذا الصدد أن هذه المعابد قد هدمت بعد صعود نجم محمد»[1].

وهكذا قرر هذا المستشرق الذي عدّ نفسه مخلصاً للعلم ولمبادئه أن يعالج مسائل في غاية الخطورة بحق القرآن باسم العلم والمنهج. إذن فوات وزملاؤه من قبله ومن بعد بأسلوبهم القائم على استخدام الشاذ والضعيف والمدسوس للحقائق المسلم بها والتي لا يمكن لأي مسلم مجرد التفكير بها (بقولهم إنها صححت وعدلت أو غيرت لأسباب اقتضتها الظروف) ويستنتج وات ذلك بقوله: «وهكذا لم يرفض محمد عروض المكيين لأسباب زمنية بل بسبب ديني حقيقي ليس لأنه لم يكن يثق بهم مثلاً أو لأنه لم يبق شيء في مطامحه الشخصية بل لأن الاعتراف بآلهتهم يؤدي إلى فشل قضيته والمهمة التي تلقاها من الله»[2].

إن القبول أو مجرد الاعتقاد بما ذهب إليه هذا المستشرق وات ولو بنسبة 1 ٪ وهو من أبرز من اشتغل في السيرة النبوية يعني أن محمد ﷺ يمكن أن يخطئ أو يتقبل الخطأ في أساس دعوته الذي هو التوحيد المطلق لله تعالى ورفض الوثنية رفضاً جازماً قاطعاً لا يقبل مهادنةً أو اعترافاً بها بأي شيء[3].

ومن خلال عرضنا الموجز لهذه الفقرة تبين لنا بوضوح موقف هؤلاء المستشرقين من السيرة النبوية وكيف كانت نظرتهم ومعالجتهم لمفاصلها على الرغم من كل ذلك نقول بعد كل الموجات التي قادها الرهبان والمبشرون والمستشرقون وطلابهم وتلامذتهم في الشرق

---

(1) ينظر وات، محمد في مكة، 2.

(2) ينظر وات ، محمد في مكة، 11 – 12.

(3) ينظر عماد الدين خليل، وات، 147 – 150.

العربي والإسلامي فهم وبلا شك ارتضوا لأنفسهم السقوط في المهانة وهم الذين دربتهم دعوات التبشير على إنكار كل ما هو ثابت وأصيل وعلى كل ما هو من المقومات التأريخية والروحية في ماضي هذه الأمة العريق وعلى التنديد والاستخفاف بها.

وهؤلاء ومن شاكلهم من طلابهم المخلصين لهم وللمؤسسات التي تخرجوا منها والتي وجهتهم إلى أن يصوغوا هذه الافكار المنكرة للثوابت الإسلامية والاستخفاف بها في صورة ابحاث علمية جامعية أو مؤسساتية فاسدة قائمة على أسلوب الجدل والمناقشة السفسطائية والتي يتم دعمها ونشرها وإذاعتها أو حتى ترجمتها إلى لغات عديدة من قبل مؤسسات دولية حاقدة على الإسلام ورسوله.

نقول إن هذا الجيش الذي اعدته الحركة الاستشراقية العالمية منذ قرون لينال من الإسلام دين الله ﷺ ولما كان كذلك فلن يخذل الله دينه ولا اتباعه فلينعق الف ناعق وينبح ألف كلب لينالوا من هذا الدين فنقول خاب فألهم وجعل الله كيدهم في نحرهم.

وفي الختام نقول لعموم المسلمين عرباً وغير عرب ان أحد هؤلاء المستشرقين يقول ولعل في قوله حكمة ويدرك المسلمون معنى ما يقول ويعودوا كما كانوا بقول المستشرق لويس براون (اذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية أمكن لهم أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً وأمكن أن يصبحوا نعمة ايضاً إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذٍ بلا قوة ولا تأثير)[1].



(1) ينظر الإسلام والإرساليات، 44 – 48.

الخاتمة

بعد هذا الاستعراض الشامل لحركة الاستشراق العالمية والذي تم فيه عرض لجوانب عديدة من هذه الحركة وبشكل يكاد يكون تفصيلي والاطلاع على الأهداف والنوايا والوسائل والغايات نقول أيها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ان هذه الحملة وغيرها من الحملات التي توجه ومنذ قرون عديدة للنيل من الإسلام ورسوله إنما تدل وبشكل لا يقبل الشك على ان هذا هو الدين الاعظم من بين الأديان وإلا لماذا توجه إليه هذه الطعنات والضربات وهو صامد باقٍ بإذن الله عَزَّوَجَلَّ لأن الإسلام دين الله الذي ارتضاه لعباده على وجه الأرض لأنه الدين الوحيد الذي ازال الطغاة ورجال الدين والكهنة وعبادة الافراد وهو الدين الوحيد الذي ازال طبقات رجال الدين وازال المعابد الشركية الوثنية التي يعبد فيها طواغيت من دون الله عَزَّوَجَلَّ.

أيها المسلمون: ابتدأت الهجمات على دينكم منذ ظهوره في مكة ولأول مرة فلقد توحدت قوى الشرك والوثنية للنيل منه وحاربته بكل ما أوتيت من قوة إلا أن الله كان لهم دائماً بالمرصاد فخاب فألهم ورد كيدهم فالحملات الصليبية والتبشيرية والاستشراقية هي من حملات عديدة شنت وسوف تشن غيرها على هذا الدين الذي احترم الإنسان ورفع شأنه ومنع الفساد وحاربه وامر بالمعروف ونهى عن المنكر وصان الحرمات ورفع شأن المقدسات وحارب الكفر والشرك والوثنية وقاتل الطواغيت وحرر الناس من عبادة العباد إلى عبادة الواحد القهار ومن ضيق الدنيا إلى سعتها وظلم الأديان إلى عدل الإسلام هذا الدين الذي ساوى ما بين العبد والحر والفقير والغني عند الله وجعل التفاضل بالتقوى وليس

بالشرف والجاه والمنصب وكثرة الأموال فهذا الدين دين رحمة وعدل ومساواة فبهذا الدين وعدله وسماحته ساد الدنيا ولهذا يخشى المشركون وعباد الاوثان من ان تعودوا لمثل ما كنتم عليه لهذا جهدوا أنفسهم في محاربة دينكم والنيل منه ورسوله وبذلوا الأموال الطائلة وأنفقوها بغير وجه حق حتى لينالوا هذا الدين فأين أنتم من هذه الهجمات فسوف تسألون أمام الله عن موقفكم من هذا الدين وتمسككم به.

فالعمل إذن هو بالعودة إلى منابع الإسلام الأصلية والتمسك بها ورفض كل ما هو دخيل عليه من الذي جاء باسم التحرير والانفتاح والانعتاق من الماضي فالماضي هو الأصل وما دونه الباطل.

والله من وراء القصد

المؤلف



فهرس المحتويات

